السبت 18 شباط 2023
العدد 4852 السنة السابعة عشرة
Samedi 18 Février 2023 no 4852 17ème année

24 صفحة
20000 ليرة

الأخبار
al-akhbar

www.al-akhbar.com

كلمات

هل «اكتشف» كولومبوس أميركا حقّاً؟

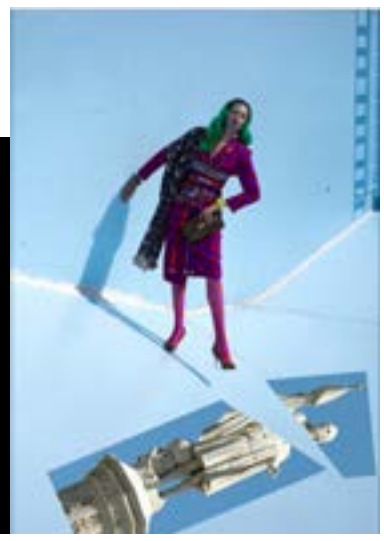

إسرائيل: يجب أخذ تهديدات نصرالله في الحسبان

وقاحة الحاكمين: لنجدّد لسلامة [2]

اطلب القوس مع الأخبار

وداعاً للأطباء!

[4 ـ 5]

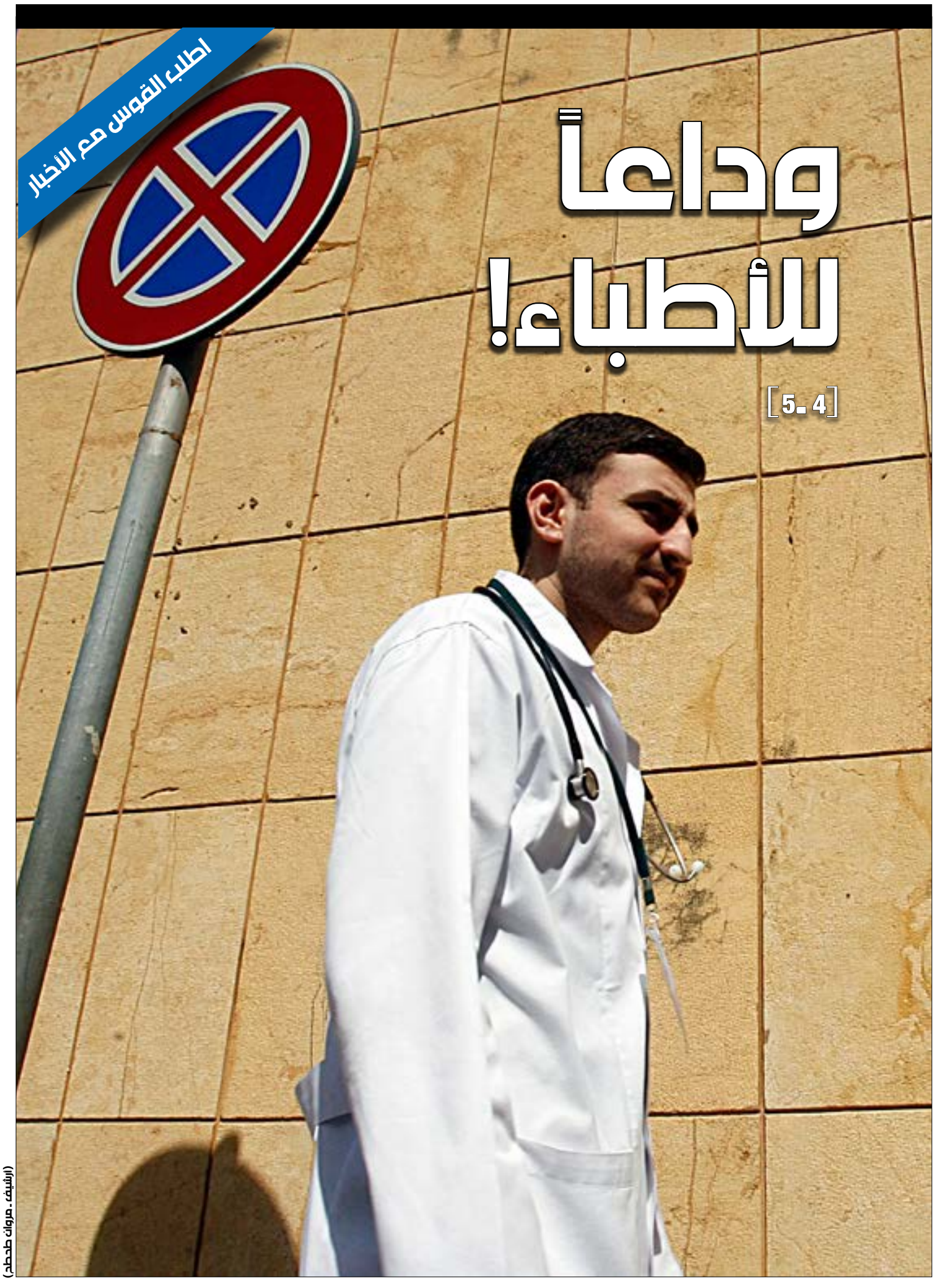

(أرشيف ـ مروان طحطح)

الحدث

النكبة السورية
حماة لا تخشى «بلك» الزلزال

8

رأي

فؤاد عجمي
أول صهيوني عربي مُجاهر في أميركا

6

البلاد

برشلونة لتك أبيب: لا أشبهك!

[12]

حاتم محتسب: لبناء حاضنة شعبية عالمية للمقاومة

[14]

المشهد السياسي

وزير المالية يمهد لمعركة التمديد لسلامة؟

(مروان بو حيدر)

«استبدال حاكم مصرف لبنان سيكون صعباً». هكذا، بكل بساطة، وفي ظل دولار يقترب من عتبة الـ 100 ألف ليرة، افتتح وزير المال يوسف خليل على ما يبدو معركة أن يكون كلام وزير المالية من «بنات أفكاره»، فإن السؤال هو عن الجهة التي ستجرؤ على تبنّي التمديد لأبرز اللاعبين على حلبة التلاعب بالعملة وكاتم أسرار المنظومة ومدير جرائمها المالية عند انتهاء ولايته في أيار المقبل.

كلام خليل جاء في ذروة الانفجار السياسي والاجتماعي، ومع تخطي الدولار عتبة الـ 80 ألفاً وسط مؤشرات تدل على مضيه في تسجيل أرقام قياسية، فيما كان لافتاً أمس انكفاء الحركة الاحتجاجية التي شهدها الشارع أول من أمس. إلا أن هذا «الانسحاب» لا يلغي بأن موجة الاضطرابات التي بدأت تعود ميدانياً ستشهد تصاعداً الأسبوع المقبل بفعل الغلاء الفاحش واستمرار انهيار الليرة وغياب الرقابة على تجار الأزمات. وهو ما استدعى أمس اجتماعاً لمجلس الأمن المركزي برئاسة رئيس حكومة تصريف الأعمال نجيب ميقاتي. الاجتماع استعرض العملية التي يقوم بها الجيش اللبناني في بلدة حورتعلا البقاعية، والأحداث الأمنية التي شهدها اليومان الماضيان، وسأل ميقاتي عما إذا كان هناك إيعاز من جهة ما للعودة إلى الشارع. وهو ما نفاه قادة الأجهزة وفق ما توافر لديهم من معطيات. كما عرض هؤلاء الخطط الموضوعة للتعامل مع أي تحركات في الشارع، والمشكلات التي تعاني منها الأسلاك الأمنية والعسكرية لجهة تدني الرواتب وخروج عدد كبير من الآليات عن الخدمة وعدم القدرة على إصلاحها أو شراء قطع غيار لها.

رئاسياً، زارت السفيرة الفرنسية في بيروت آن غريو رئيس مجلس النواب نبيه بري أمس، بعدما شاركت في لقاء عين التينة بين بري وسفراء دول لقاء باريس الخماسي. وعلمت «الأخبار» أن «هذا اللقاء كان مقرراً قبل اجتماع بري مع الديبلوماسيين الخمسة، وبعدما طلبت غريو الإبقاء على الموعد»، وهي، وفق مصادر مطلعة، «لم تضف جديداً على الأجواء التي سادت الاجتماع، بل أكدت الكلام نفسه عن ضرورة تفعيل الجهود لانتخاب رئيس وتشكيل حكومة والقيام بالإصلاحات المطلوبة»، معتبرة أن «اللقاء يأتي في إطار التمايز الذي تحاول باريس إظهاره عن الأطراف الأخرى بشأن الملف اللبناني».

وكان لرئيس «تيار المردة» سليمان فرنجية، المرشح الضمني لحزب الله وحركة أمل، كلام لافت خلال رعايته العشاء التقليدي في زغرتا أول من أمس اعتبر فيه أن «الدستور وُضع بطريقة حكيمة. فالميثاقية هي أن تكون كل طائفة ممثلة وبالتالي فإن الرئيس المنتخب بـ 65 صوتاً وبحضور 86 نائباً هو رئيس شرعي وميثاقي». وقد يكون هذا الكلام تعبيراً عن جهد جدي لتأمين الـ «بوانتاج» الضامن لإيصال فرنجية بانتظار اللحظة المؤاتية للإفراج عن هذا الجهد.

(الأخبار)

فرنجية: الرئيس المنتخب بـ 65 صوتاً وبحضور 86 نائباً شرعي وميثاقي

التمديد لرياض سلامة المحاصر بقضايا فساد وتبييض أموال، والملاحَق أمام القضاء في عدد من البلدان الأوروبية. وأكّد خليل أن سلامة «قد تُمدّد ولايته رغم عدم التوصل إلى توافق بشأن ذلك حتى الآن (...) لأنّ المناخ السياسي الحالي في لبنان يجعل من الصعب إجراء تغيير كبير مثل هذا». وإذ يصعب لم يكن مفاجئاً أن تتأنى القيادتان السياسية والأمنية في الكيان الإسرائيلي في الرد على المعادلة التي أطلقها الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله، أول من أمس، في مواجهة مخطط دفع لبنان إلى الانهيار التام. فالوضع الداخلي في الكيان مأزوم، والتوتر مع الشعب الفلسطيني يكاد ينفجر، وجدية تهديدات نصرالله اختبرتها الجهات المختصة في كيان العدو سابقاً. كما أن الدوافع لتنفيذ هذه المعادلة في ذروتها. لذلك، فإن أي موقف غير محسوب أو مدروس جيداً قد يتدحرج إلى ما لا تحمد عقباه سياسياً وحتى عملياتياً. كما أن معادلة الأمين العام لحزب الله ستفرض على جيش العدو رفع مستوى الجاهزية والاستعداد لإمكانية

إسرائيل: يجب أخذ تهديدات نصرالله في الحسبان

تمدد التوتر القائم مع الضفة وقطاع غزة إلى الجبهة مع لبنان.

مع ذلك، تركت مواقف السيد نصرالله أصداءها في الواقع الإسرائيلي عبر مواقع التواصل ووسائل الإعلام. فاعتبرت إحدى قنوات التلفزة الإسرائيلية أن إسرائيل «استيقظت على جبهة جديدة» بعد تهديد نصرالله، ولفت معلق الشؤون العربية تسيفي يحزكيلي إلى أن إسرائيل، بنظر الأمين العام لحزب الله، هي المذنبة دائماً، ولذلك «يجب أخذ هذا التهديد بالحسبان» لأن لبنان يواجه ضائقة، ولكون الاتفاق مع شركات الغاز لا يسير بسرعة ولذلك فإن «الأمر يستحق الانتباه».

وفي السياق نفسه، اهتمت وسائل الإعلام الإسرائيلية ومواقع التواصل الاجتماعي بكلام نصرالله عن الأزمة الداخلية الإسرائيلية، مشيرين إلى أن ما قاله بصوت عال هو نفس ما أوردته تقارير الاستخبارات الإسرائيلية عن الوضع الداخلي.

وخصوصية الاهتمام الإسرائيلي بمواقف السيد نصرالله إزاء حالة الانقسام والتشظي التي يعاني منها المجتمع الإسرائيلي تشكل تجسيداً لنظرية بيت العنكبوت، التي تشكل مدماكاً رئيسياً في رؤية المقاومة للواقع الإسرائيلي. بالتالي فإن ما تواجهه إسرائيل من أزمات متفاقمة ومتصاعدة، يشكل أيضاً استكمالاً للصورة التي تتبناها المقاومة إزاء المشهد الداخلي الإسرائيلي.

تقرير

الحريري يعود إلى «العزلة»: نهاية مفعول «فائض القوة»

لينا فخر الدين

ما إن أقلعت طائرة الرئيس سعد الحريري إلى الإمارات العربيّة المتّحدة، حتى عاد اليأس ليتسرّب إلى نفوس أنصاره وكوادر تيّاره. ظنّ هؤلاء بعد عودة زعيمهم إلى بيت الوسط وفتح أبوابه لاستقبالات سياسيّة وشعبيّة أنّ تطوّراً ما خفّف من «إجراءات الاعتكاف» وسيؤدّي إلى «رفع العقوبات» عن رئيسهم. لكن لا شيء من هذا حصل. استقلّ الرجل طائرته وعاد إلى «منفاه الطوعي»، مخلّفاً وراءه خيبة جمهور لا يزال بعضه يُراهن على أنّ الحريري لم يقطع «One way ticket». «سعد راجع»، يُردّدون، قبل أن يُضيفوا إليها عبارة «يوماً ما».

إذ يُدرك هؤلاء أنّ الحريري غير قادر على كسر «الحصار» السعودي والخروج من تحت غطاء المملكة متلاحقة، وإعادة بيت الوسط خليّة «خطّ» القرار، وصولاً إلى خطف «صاحب القرار» إذا ما استدعى الأمر، كما حصل في تشرين الثاني 2017.

يتفهّم المستقبليون، قياديّون وقاعدة، عدم القدرة على تحدّي «وليّ الأمر»، لكنهم غير قادرين على تجرّع تحوّل قائدهم إلى «مستضعف» يسحب خلفه طائفة بأكملها. لذلك، فرحوا به «فائض القوّة» إبّان وجود الحريري في بيروت، بعدما بدا أن «أيّام العزّ» عادت: انصار «التيّار الأزرق» يتجمهرون حول ضريح الرئيس رفيق الحريري ويتوجّهون إلى بيت الوسط، اتصالات تنهال على الزعيم العائد طلباً لمواعيد متلاحقة، وعاد بيت الوسط خليّة نحل. ارتفعت نسبة «الأدرينالين» في العروق، قبل أن يثبط سفره العزائم وتعود «السوداويّة» للتسلل إلى العقول: ماذا لو خرج من الحياة السياسية نهائياً؟

جمعيّة خيريّة

لا كوادر التيار ولا جمهوره أقنعهم الخطاب المتناقض الذي قدّمه الحريري، على مدى الأيّام السبّة التي قضاها بينهم: ضدّ «المنظومة» التي التقى كل رموزها، لقاءات سياسية لزعيم يرفض أن يكون في المستقبل غيابهم عن السمع: ورشة تنظيميّة مؤجّلة منذ أكثر من عامين. وتنسيقيّات لم تجتمع منذ أشهر طويلة، باستثناء اجتماعات متباعدة للمكتب السياسي، وخلافات مستشرية بين القياديين ولا سيّما بين «الأحمديين»، الحريري وهاشميّة، فيما يقطع رئيس التيّار التواصل مع كل كوادره بمجرد وصوله إلى مقر إقامته، كما لو أنّه غير موجود. في ظل ذلك كله، أوصى الحريري كوادره، في اليوم الأوّل من لقاءاته، بأن عليهم الإبقاء على الأعمال التنظيميّة للتيّار وزيادة مساهماتهم في العمل الاجتماعي والنقابي! وزاد الطين بلة أنه كان يأخذ هؤلاء على قياديّي تيار الأزمة الخطيرة التي تجتاح لبنان منذ عدة سنوات»، شدّدت «على ضرورة استقلال القضاء وتحقيق العدالة»، وأكدت «التضامن مع الزميل القاضي طارق البيطار (المحقق العدلي)»، معتبرة أن «كلامه عن أن لا شيء سيمنعه من استكمال التحقيق يدل على كفاءته». كما اعتبرت النقابة في بيانها أن «التحقيق يعتمد على مصير التحقيقات التي باشرتها باريس في هذا الملف بسبب وجود ضحايا فرنسيين، مع الإشارة إلى الخلاف القضائي – القضائي الذي وقع بين البيطار والنيابة العامة التمييزية وما نتج منه من تداعيات».

تضامن فرنسي مع البيطار

أصدرت نقابة القضاة الفرنسيين قبلَ أيام بياناً يتناول الوضع القضائي في لبنان، وتحديداً التحقيق في انفجار مرفأ بيروت. وفيما أبدت «قلقها من الأزمة الخطيرة التي تجتاح لبنان منذ عدة سنوات»، شدّدت «على ضرورة استقلال القضاء وتحقيق العدالة»، وأكدت «التضامن مع الزميل القاضي طارق البيطار (المحقق العدلي)»، معتبرة أن «كلامه عن أن لا شيء سيمنعه من استكمال التحقيق يدل على كفاءته». كما اعتبرت النقابة في بيانها أن «التحقيق يعتمد على مصير التحقيقات التي باشرتها باريس في هذا الملف بسبب وجود ضحايا فرنسيين، مع الإشارة إلى الخلاف القضائي – القضائي الذي وقع بين البيطار والنيابة العامة التمييزية وما نتج منه من تداعيات».

في الواجهة

برّي يتفهّم المقاطعة ولا يبرّرها: الأولوية لوحدة المجلس

الجلسة المفترضة للبرلمان، المؤجّلة من خميس إلى خميس دونما أن تكون مؤكّدة وقد لا تنعقد، لا يريد الرئيس نبيه برّي أن تكون اختبار انقسامه على نفسه وتحوله إلى نسخة مشابهة لحكومة الرئيس نجيب ميقاتي. ذلك مغزى المنتظر الاثنين من اجتماع التشاور

نقولا ناصيف

ما لم تطرأ مفاجأة حتى بعد غد الاثنين، موعد جلسة هيئة مكتب مجلس النواب، فإن التئام البرلمان الأسبوع المقبل مشوب بما هو أكثر من الغموض: الشكوك والاستبعاد. بعدما أكد أكثر من مرة منذ الاثنين الماضي في الجلسة السابقة للهيئة وأعاد التيار الوطني الحر البارحة الجزم به، سيفتقر انعقاد المجلس إلى الأكثرية المطلقة. لم تعد الميثاقية عبيه، المعوَّضة بنواب مسيحيين ينتمون إلى سوى الكتلتين الكبريين، التيار الوطني الحر وحزب القوات اللبنانية، بل اكتمال النصاب القانوني على نحو مكمل للمسار الذي تسلكه الجلسات المتعثرة لانتخاب رئيس الجمهورية.

في الساعات الأخيرة تبلورت معطيات أشاعت مسحة التشاؤم على الجلسة بما يتجاوز أحد البنود الأساسية المقررة لها وهي تمديد ولاية المدير العام للأمن العام اللواء عباس إبراهيم، إلى عناصر تقاطعت عند أكثر من كتلة نيابية. ليس التقاطع السلبي هذا من جلسة البرلمان إلا تعبيراً إضافياً عن الأسباب التي لا تزال - وستظل كذلك - تحول دون انتخاب الرئيس. لا تكتفي بأن أحداً لا يملك منفرداً وإن مع حلفاء في فريقه المجيء بالثلثين إليها، ولا بالنصف زائداً واحداً حتى. بات الخلاف على الانعقاد الدستوري لمجلس النواب كالخلاف على الطعن الدستوري في حكومة مستقيلة تتولى صلاحيات رئيس الجمهورية، كالخلاف على مواصفات الرئيس المقبل وانتمائه إلى مشروع أي من أفرقاء الانقسام الوطني.

أول المعطيات تلك حرص الكتل النيابية المقاطعة على إبلاغ الرئيس نبيه برّي، مباشرة أو مداورة، أن اعتراضها على اجتماع المجلس لا يستهدفه هو بالذات، ولا يمثّل تحدياً له أو موقفاً عدائياً أو سلبياً منه.

ثانيها في معزل عن تأييد أكثر من كتلة تمديد ولاية اللواء إبراهيم، يجتمع معارضو حضور جلسة اشتراعية، الموزعون على التيار الوطني الحر وكتلة النواب الـ46 موقعي بيان 11 شباط، على موقف موحد هو أولوية انتخاب رئيس للجمهورية على ما عداه بما في ذلك انعقاد البرلمان لسوى انتخاب الرئيس. بيد أنهم ينقسمون على الموقف من حكومة الرئيس نجيب ميقاتي بين مَن يحسبها دستورية تملك أن تجتمع في جلسات الضرورة، وبين طاعن في دستورية توليها بصفتها مستقيلة صلاحيات رئيس الجمهورية.

ثالثها تمييز الغالبية النيابية التي تشمل النواب المتأهبين للحضور كما معارضيه، مثول حكومة مستقيلة أمام المجلس عن مثول حكومة كاملة المواصفات الدستورية وعاملة. هو الفارق بين ما كانت عليه حكومة الرئيس تمام سلام بين عامي 2014 و2016 واجتماع البرلمان لتشريع الضرورة وتمكينه فعلاً حينذاك من التصويت على أكثر من مئة قانون سجال من حول توليها صلاحيات رئيس الجمهورية، وبين ما هي عليه حكومة ميقاتي المكلفة تصريف الأعمال والملزمة دستورياً بفعل الشغور تولي صلاحيات الرئيس. لا تملك أن تحضر جلسات التشريع، وهو ما تفعله، ولا تملك ثقة المرجعية التي تمثل أمامها كي تتنكب مسؤولياتها الدستورية.

رابعها رغم التمسّك المبدئي لبرّي بانعقاد مجلس النواب كما بدستورية جلسات تشريع الضرورة تبعاً للمعنى الدقيق والحصري الذي تحمله ورغبته في تسهيل إمرار مرحلة الشغور بأقل أضرار ومعالجة الأعباء اليومية، بيد أنه يتفهّم - دونما أن يوافق أو يبرر حتى تحت وطأة الظروف الصعبة الموجبة - الاستثناء الدستوري الذي تتخبط فيه حكومة ميقاتي. ليس في الإمكان الاستغناء عنها والطعن فيها ما دام لا بديل يتولى السلطة الإجرائية. إلا أن العقبة الكأداء فيها أن ينظر مجلس النواب في مشاريع قوانين تحيلها إليه حكومة مستقيلة كي يصوّت عليها. لأنها حكومة مستقيلة تتولى تصريف الأعمال وإن مضافاً إليها استثنائياً صلاحيات رئيس الجمهورية، ليس في إمكانها وضع القوانين المقرّة موضع التطبيق لا سيما منها المرتبط تنفيذها بآجال طويلة أو التزامات جوهرية وسياسات توجب وجود رئيس للجمهورية على رأس السلطة الإجرائية

> **ليس لحكومة مستقيلة فرض التزامات وسياسات لا تستطيع تطبيقها على عهد لم يبدأ**

هذه، ناهيك بإلزام السلطات المقبلة - الرئيس الجديد وحكومة العهد الأولى - ما أتمته حكومة مستقيلة في توقيت شغور رئاسي يقتضي مقاربته على أنه استثنائي.

ذلك ما يصح على قانون كابيتال كونترول (المؤجل منذ عام 2020) والتشريعات المنبثقة مما طلبه صندوق النقد الدولي وثلاثة اتفاقات قروض خارجية محالة من المرحلة الأخيرة في ولاية الرئيس ميشال عون، بينما الباقي اقتراحات قوانين لا ينطبق عليها طابع العجلة كتعديل قوانين الشراء والبلديات والإيجارات وأصول المحاكمات الجزائية والمدنية وتحويل الإهراءات إلى معلم وطني وعدم تطبيق قانون النقد والتسليف على البلديات وسواها... فوق ذلك كله أربعة اقتراحات متباينة لتمديد ولايات المديرين العامين عسكريين ومدنيين كل على نحو منفصل.

تفهُّم رئيس المجلس وجهات النظر لم تمنعه من توجيه إشارات إيجابية إلى الكتل والنواب الفرادى المقاطعين، بمن فيها التيار الوطني الحر، يؤكد فيها حرصه على وحدة مجلس النواب وتماسكه وعدم تعريضه إلى أي خلل أو اختبار صعب على غرار حكومة ميقاتي.

خامسها مرتبط بجدال دستوري يدور من حول المادة 57 المنوطة برئيس الجمهورية، ويصح في الاجتهاد القول إن لحكومة دستورية تنتقل إليها صلاحية رئيس الجمهورية حقّ استخدامها بطلب إجراء قراءة ثانية لقانون أقره مجلس النواب، على أن ينبثق طلب إعادة النظر فيه من قرار لمجلس الوزراء الوكيل على صلاحية الرئيس. ذلك ما ليس متاحاً لحكومة تصريف الأعمال. بذلك، تبعاً لتقاطع الآراء، ينشأ إخلال بالقواعد الدستورية الجوهرية للتشريع التي تعطي صلاحية المصادقة للبرلمان وصلاحية إعادة النظر في المصادقة تلك لرئيس الجمهورية بعد إطلاع مجلس الوزراء. في صلب ما لا ليس للحكومة المستقيلة أن تفعله، إنها لا تملك مخاطبة البرلمان والتوجه إليه فيما فقدت ثقته منذ استقالت وباشرت تصريف الأعمال في النطاق الضيق.

(مروان بو حيدر)

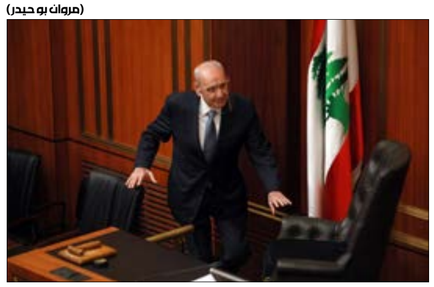

توضيح

عطفاً على المقال المنشور في جريدتكم بتاريخ 2023/02/13 تحت عنوان جمعية «إرادة»: «الابنة» الماليّة غير المُعلنة لـ«الجماعة». ولما كان المقال قد تضمن مغالطات واستنتاجات بعيدة عن الصواب، فإننا نرغب في توضيح ما يلي:

إن اتحاد رجال الأعمال للدعم والتطوير (إرادة) هو تجمع لرجال الأعمال يعنى بالشأن الاقتصادي والاجتماعي في سبيل تطوير ونهضة المجتمع اللبناني. إننا في إرادة اتحاد مستقل لا يتبع ولا يمثل أي جمعية أو هيئة أخرى، وليس لإرادة أية ارتباطات داخلية أو خارجية، وهي على علاقة ممتازة مع جميع مكونات المجتمع اللبناني.

أمانة سر اتحاد رجال الأعمال للدعم والتطوير «إرادة»

على الغلاف

«مستشفى العرب» بلا اختصاصات
وداعاً للأطباء!

25 إلى 30% هي نسبة الاطباء الذين هاجروا «رسمياً» بعد الحصول على إفادات من نقابتيْ الاطباء في بيروت وطرابلس. الرقم ليس نهائياً، لأن الأعداد المسجلة لا تعكس الواقع مع هجرة موازية لأطباء تركوا من دون إعلام نقابتهم، ولأن النزف متواصل لا سيّما مع ازدياد الأسباب التي تؤدي إلى خيار الهجرة. مع ذلك قد يكون الرقم على ضخامته عادياً مقارنة بالسؤال: من الذي هاجر؟ لأن إجابته تكشف فراغاً قاتلاً في الاختصاصات الدقيقة والنادرة التي كان يتميّز بها لبنان، وباتت تؤثر اليوم على خدماته، ما ينذر بنهاية قطاع اقترن اسم لبنان به طويلاً كـ«مستشفى العرب»

راجانا حميّة

لا تزال أزمة هجرة الأطباء تكبر، حتى باتت تقترب اليوم من النزف المنظّم، بحسب المتابعين. وفي ظلّ تجذّر الأسباب الدافعة إلى الهجرة أكثر، يتوقع أن يدخل لبنان مرحلة الطوارئ الطبية مع دخول الهجرة نسختها الثالثة اليوم. يرى المتابعون أن لبنان تخطى بين عامي 2019 و2021 هجرتين، وهو يعيش اليوم على وقع الهجرة الثالثة التي تتسبّب بها هذه المرة إجراءات المصارف. فبعد الأزمة

> **يقتصر عدد الأطباء المختصين بجراحة قلب الأطفال حالياً على طبيب واحد**

المالية التي أدّت إلى انهيار المعيشة كان قرار «القرار» الأول، ثم جاء انفجار مرفأ بيروت ليعزّز رغبة كثيرين من الأطباء بالرحيل، وها هي القرارات التعسّفية من المصارف، والأخرى غير المدروسة من الدولة، تدفع أكثر باتجاه الرحيل. إذ تتعامل المصارف مع الأطباء، كغيرهم من المودعين، على قاعدة «أنا ربّكم الأعلى»، مبتكرة إجراءات خاصة في التعامل مع أيّ مودع، قائمة على ضمان بقائها من «جيبه».

تعسّف المصارف

ولأن الضربات لا تأتي فرادى، فقد لعبت أسباب إضافية في جعل خيار الهجرة خياراً أوحد. وفي هذا السياق، ينطلق نقيب الأطباء في بيروت، يوسف بخاش في حديثه عن «الكارثة» من الانهيارات المتتالية، سواء في العملة الوطنية أو في المؤسسات والصناديق الضامنة. وللأخيرة حصّة من الخيار، فرغم محاولات التعديل في جداول التعرفات الطبية وأتعاب الأطباء، إلا أنها لم تترافق مع حجم الانهيار الحاصل. وإذ عمل الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي على رفع التعرفة ضعفين ونصف، ووزارة الصحة ما يقرب من سبعة أضعاف، وكذلك الحال بالنسبة لتعاونية موظفي الدولة، إلا أن كلّ هذه الأضعاف لم تلامس الحدّ الأدنى لتحليق الدولار.

لم ينتفض الأطباء في وجه تلك الزيادات، لعلمهم أن هذا أقصى ما يمكن الحصول عليه من مؤسسات منهارة. قبلوا بما تعطيه على مضض، وإن كان «وهماً»، بحسب بخاش، انطلاقاً من أن الأموال لا تصلهم مباشرة وإنما يجري تحويلها إلى المصارف. وهنا، تبدأ الدوامة: مصارف قد تستقبل الوديعة، وأخرى لا... وإن استقبلت قد لا تصرفها، وإن صرفتها ستصرفها وفق سقوفٍ معينة، وإن قبضها الأطباء «ستكون لا شيء، للفارق في القيمة ما بين فترة إيداعها وفترة صرفها».

وإذ أوصلت سياسة المصارف التعسّفية بعض الأطباء إلى طلب فروقات من المرضى بالعملة الفريش، سواء الوطنية أو الدولار الأميركي «من أجل تأمين الحد الأدنى من الاستمرارية»، إلا أن سياسة الدولة غير المدروسة قضت على آمال هؤلاء. وقد تجلى هذا الأمر في إقرار سلّة من الإجراءات الضريبية «لم تأخذ في الاعتبار كيف يمكن للطبيب أن يحصّل معيشته»، يقول بخاش. السخرية، بحسبه، أن تقاسم الدولة الأطباء والمؤسسات «التي لا تزال صامدة» لقمة عيشها في الوقت الذي تتغاضى عن كثير من الملزمين بدفع الضرائب وهم لا يدفعونها. الخليجية مثلاً، وهناك من لم يغادر بعد بانتظار الردود من الأماكن التي راسلها. وهما سببان يقودان إلى النتيجة نفسها: باب الهجرة لم يقفل بعد.

باب الهجرة المفتوح

لكلّ هذه الأسباب، تكبر لائحة طالبي الهجرة. ففي ثالث الهجرات، بلغ عدد طالبي إفادات حسن السلوك والأداء من نقابة أطباء بيروت ما يقرب من 3500 طبيب، بلغةٍ أخرى، يعني هذا الرقم 25% من مجمل عدد أطباء بيروت البالغ بحدود 14 ألف طبيب. مع ذلك، هي حصيلة غير نهائية، لسبب أول أساسي يتعلق بأن هناك عدداً لا بأس به من الأطباء هاجر من دون أن يطلب الإفادة، لأن بعض الدول لا تطلبها مثل عدد من الدولة الخليجية مثلاً، وهناك من لم يغادر بعد بانتظار الردود من الأماكن التي راسلها. وهما سببان يقودان إلى النتيجة نفسها: باب الهجرة لم يقفل بعد.

ينسحب هذا الأمر على منطقة الشمال التي تخسر هي الأخرى أطباء كثراً، وبحسب نائب نقيب أطباء طرابلس سليم أبي صالح، تخطت الهجرة هناك الـ35% (عدد الأطباء المسجلين في طرابلس يبلغ بحدود 2500 طبيب) في مختلف الاختصاصات، وإن كان للاختصاصات النادرة الحصة الأكبر. ويذكر أبي صالح بعض الاختصاصات التي بدأت تُفقد في الشمال كجراحة قلب الأطفال وأطباء التخدير والإنعاش وشرايين الدماغ، مشيراً «إلى أن الاختصاص الأخير لم يبقَ منه سوى طبيبين في كلّ الشمال الذي يضم 33 مستشفى»! أضف إلى ذلك أن الاختصاصات التي «كان فيها وفرة، بدأنا نشهد هجرة أكبر بها، حتى أننا نشهد نوعاً جديداً من الهجرة، لا هي دائمة ولا مؤقتة، حيث يعمد أطباء كثر إلى تقسيم دوامات عياداتهم ما بين لبنان والخارج».

تأثير على الاختصاصات

أثّرت هذه الانسحابات على مختلف الاختصاصات الطبية، إذ لم يكن «أحد منها في مأمن»، بحسم بخاش، فالكلّ طاوله النقص. غير أن بعض الاختصاصات تأثرت أكثر من غيرها، إما لمحدودية عدد الأطباء فيها أصلاً أو لأنها كانت من الاختصاصات «المرغوبة خارجاً». وإن لم يكن سهلاً تعداد النقص في مجمل الاختصاصات لصعوبة الأمر، وحالياً تعمل إحدى المنظمات التابعة للأمم المتحدة على إعداد دراسة مفصلة عن هجرة الأطباء في لبنان للخروج بإحصاءات دقيقة، إلا أنّه يمكن استعراض بعض الأمثلة. يمكن الحديث مثلاً هنا عن نقص فادح في أعداد الأطباء المختصين بجراحة قلب الأطفال حيث يستقرّ العدد اليوم... على طبيب واحد يفترض به أن «يخدم» على كلّ الأراضي اللبنانية. وكذلك الحال بالنسبة لجراحة شرايين الدماغ، والذي يقتصر العدد حالياً على طبيب واحد، بحسب بخاش.

مقابل هذه الأمثلة، تنخفض الأعداد في مجمل الاختصاصات المتبقية إلى النصف، مثلاً أطباء غسل الكلى انخفض العدد من 130 طبيباً إلى 76 طبيباً، وكذلك الحال بالنسبة لأطباء الطوارئ والإنعاش والتخدير وأطباء الأشعة وأطباء الأشعة للأمراض السرطانية، حيث بات لكل «4 أو 5 مراكز طبيب أشعة واحد»، يقول بخاش. ومن بقي هنا «لا يستطيع تغطية النقص في كل المستشفيات». ولذلك نجد أن عدداً من المستشفيات والمراكز الطبية عمل على إقفال أقسام فيها بسبب غياب الكادر الطبي والتمريضي أيضاً وانخفاض أعداد الأسرّة إلى ما دون الـ50%، وإن كان السبب الإضافي هنا هو غلاء أكلاف الاستشفاء اليوم. ومن تداعيات هذا الفقدان أيضاً تعريض حياة المرضى للخطر، خصوصاً الذين يمرّون بأوضاع دقيقة، فهؤلاء «لا يصلون في الغالب إلى الخدمة الجراحية في الوقت المناسب»، ولا سيما في الأطراف، حيث أن معظم الاختصاصات النادرة كانت تتركز أصلاً في العاصمة. وفي هذا السياق، يشير أبي صالح إلى أنه «بات دارجاً اليوم أن تطلب بعض المستشفيات جدولة العمليات في الأيام التي يحضر فيها أطباء التخدير، وهو ما تواجهه اليوم كأطباء للتوليد حيث نضطر إلى تأجيل بعض العمليات إلى الأيام التي يداوم فيها طبيب البنج». أما الأخطر من ذلك، فهو النقص في أطباء الإنعاش «حيث يضطر الطبيب المعالج للمريض أن يتابعه هو في الإنعاش علماً أنه بحسب القانون ممنوع، لكونه لا يعرف في اختصاص الإنعاش».

أما الأزمة الأخرى التي تتفرّع عن الأصل، فهي أنّ الهجرة لم تعد مقتصرة على فئات عمرية محددة. فبعدما طاولت الهجرة، ما بين «حراك تشرين» وانفجار المرفأ، من أب، الأطباء ذوي الأعمار الشابة ما بين 35 و45 سنة، فهي تطاول اليوم معظم الفئات العمرية، ومنها فئة الخريجين الجدد الذين يتلقون عروضاً ومنحاً لمتابعة دراساتهم في الخارج. غير أن ما يختلف منذ بداية الهجرة واليوم أنه لم تعد للأطباء اللبنانيين ميزة على غيرهم، فقد أدّت الأزمة المالية إلى «مفاوضة» الطبيب على راتبه، وباتت سبباً في رضوخ «الفارّين» الجدد إلى القبول بعروض أقلّ مما كان يتلقاها الطبيب اللبناني سابقاً. والأزمة الأكبر هنا أن الكثيرين يرضون بما تفرضه التسويات، على ما يقول الدكتور محمد جواد خليفة، فيما يعد آخرون للعودة إلى لبنان بسبب التغيير الدوري للعقود وخصوصاً في الدول العربية، بحسب أبي صالح.

نقص في الاختصاصات الدقيقة

«ليس المهم كم عدد المهاجرين، الأهم من كلّ ذلك من الذي هاجر؟» يقول خليفة. برأيه «قد يحدث غياب طبيب واحد أزمة، لا يحدثها غياب آخرين ولو كانوا 100»، لافتاً إلى خطورة «غياب أصحاب الاختصاصات الفرعية، أي الاختصاص ضمن الاختصاص» باعتبار أنّ النظام الطبي في لبنان «ليس نظاماً عاماً وإنما نظام طبي فائق التخصص».

يعطي مثالاً «من السهل أن تجدي طبيب عظم، ولكن من الصعب أن تجدي طبيباً مختصاً بجراحة المفصل أو الركبة، ومن السهل أن تجدي جراحاً عاماً ولكن من الصعب أن تجدي جراح شرايين معيّنة في الرأس».

وتتجلى أبرز تداعيات هذا الأمر في المستشفيات الجامعية الكبرى أكثر من المستشفيات العادية، إذ إن المستشفيات الكبرى تعتمد أنظمة طبية معقدة مترابطة تستدعي وجود فريق متكامل «على طريقة الأوركسترا»، وهذا يعني إن فقدت حلقة من العقد قد يتخلخل النظام. ولذلك، يشير خليفة إلى أن العطب اليوم يكمن في أن غياب هذه الفئة من الأطباء «يخلخل النظام الطبي القائم على تلك النظرية». صحيح أنّ المستشفيات الصغيرة والمتوسطة تعاني أيضاً من النقص، بحسب خليفة، إلا أن «حجم الخلل الذي أصاب كلّ مستشفى يقاس بحجم عدد الأطباء وخصوصاً في مجال العلاجات التي تعتمد على أطباء وليس على طبيب واحد، وهو ما يتجلى أكثر في المستشفيات الكبرى».

الناحية الأخرى من الكارثة تكمن في أن النظام الصحي في لبنان قائم على «كفاءة محلية»، وهي التي كانت تميّزه، إذ إن 90 إلى 95% من العاملين في هذا النظام قائم على كفاءات لبنانية «وليس تجميعة»، وهذا ما أثر أخيراً مع الهجرة على طبيعة النظام. مع ذلك، لا يعتبر خليفة أن النظام عُطب بالكامل، إذ يوجد «عدد من المؤسسات حافظت على جودة النظام وحاولت تعزيزه، في مقابل أماكن أخرى فشل فيها، إلا أنه يمكن استلحاقه». والاستلحاق هنا يكون في طريقة واحدة: تنازل الدولة عن لا مبالاتها في تعاطيها مع هذه الفئة والعمل على إيجاد الحلول قبل فوات الأوان.

الأزمة مادية

تدور أزمة هجرة الأطباء في حلقة واحدة: «المشكل المادي»، يقول نقيب أصحاب المستشفيات الخاصة في لبنان، سليمان هارون، لافتاً إلى أن هذا الأمر هو سبب جوهري في ترك الأطباء لعياداتهم، حيث أن بعضهم يتركها بعد فترة طويلة من التأسيس هنا. ويكاد يجزم هارون أن «99% من الذين هاجروا كانت أسبابهم مادية»، وهذا يعني أنهم «إذا وجدوا أن الأمور قد عادت إلى مجاريها الطبيعية، قد يرجعون». حتى اللحظة، لا أمل يمكن أن يسند هذا السيناريو، فقد استفاق الطبيب على انهيار كامل «وجد بأن مدخراته في المصارف صارت بلا قيمة ولديه أولاد والتزامات، أضف إلى أنّ ما يجنيه لم يعد يسدّ أكلافه التشغيلية». ولهذا السبب، فضّل الفرار على البقاء. وقد جرت بعض المحاولات للضغط على المصرف المركزي من أجل تحرير أموال الأطباء المحتجزة، ومن بين تلك المحاولات ما «قامت به نقابة طرابلس حيث أرسلت طلبات إلى مصرف لبنان لاعتبار مستحقات الأطباء دفعات مستحقة الدفع الفوري إلا أننا لم نلقَ جواباً حتى اللحظة»، يقول أبي صالح. وما زاد الطين بلّة هو «أن بعض الجهات المانحة والمؤسسات الدولية كانت تغطي أتعاب الأطباء بالدولار، غير أن عدداً لا بأس به من المستشفيات عمدت إلى تثبيت الأموال الآتية بالدولار الفريش من تلك الجهات بالليرة اللبنانية، ولا يزال البعض يتقاضاها على أساس سعر صرف 1500 ليرة للدولار»، يتابع أبي صالح. مع ذلك، يشير الأخير إلى «أنه في ظلّ عدم وجود أمل بتحسن الأوضاع، نعمل على حلحلة موضوع دولار الجهات الدولية وقد نجحنا في بعض الأماكن ونحاول اليوم كسب معركتنا في أماكن أخرى».

90% من الذين هاجروا اسبابهم مادية وقد يعودون إذا تحسنت الامور (هيثم الموسوي)

مقالة

فصل متخيّل من رواية حقيقية

غسان سعود

الفرق سبع ساعات. حين تكون السابعة صباحاً في واشنطن، تكون الثانية بعد الظهر في بيروت.

يودّع أبناءه عند مدخل المنزل قبل ذهابهم إلى المدرسة، ثم يرتدي ثيابه الرسمية مع ربطة العنق المملّة نفسها ويتوجّه على عجل نحو محطة الباص. يمضي فيه نصف ساعة مملّة أخرى، قبل أن يغادره في محطة 21st+ في جادة فيرجينيا. يسير بتثاقل لثلاث دقائق نحو مقر عمله، يفكر خلالها ما إذا كان عليه التوقف في مقهى Baked and wired الشهير ببيع أطباق سريعة خالية من النشويات، أو Ching ching cha الذي تنبعث من بابه الصغير، عند طرف الشارع، رائحة القهوة والمأكولات الآسيوية الخفيفة. أو يشتري بدولارين كعكة «بايغل» (تشبه الكعكة الطرابلسية) من Bourbon Coffee.

في الأسابيع الأولى بعد تعيينه في عمله، كان يتقصّد أن يمرّ صباحاً بمتحف الفن الأميركي ليلقي نظرة على تلاميذ المدارس، ويشعر بالزهو لدى مروره بمبنى الخزانة ذي الهندسة المميّزة. الآن، لم تعد السناجب التي تقفز بين أغصان الأشجار المعمّرة على جانب الطريق تجذبه، ولا المباني الملوّنة والتاريخ المقيم في هذه البقعة. يرفع يده ليبرز البطاقة نفسها لموظف الاستقبال نفسه منذ أكثر من سبع سنوات قبل أن يأذن له بالدخول. مستخدماً البطاقة نفسها، يستقلّ المصعد إلى المكتب الصغير المخصص للبنان في مكتب شؤون الشرق الأدنى في الخارجية الأميركية.

في الداخل، ينتظره زملاؤه كي يفتح بريده الإلكتروني للاطّلاع على آخر إبداعات سفيرة بلادهم في بيروت التي خرقت كل البروتوكولات بـ«خزعبلات»، كان آخرها حفلات غناء وطبل وزمر في مقر السفارة، وموائد عامرة تُسدّد فواتيرها من أموال دافعي الضرائب الأميركيين من دون أيّ حسيب أو رقيب، لسماسرة يوصفون هنا بـ«شركاء» الولايات المتحدة. فواتير لا يصدّقها العاملون في هذا «المستودع» الضخم، لكنهم مكلّفون بالتنفيذ فقط. حتى مبدأ «نفّذ ثم اعترض» لا يسري عليهم. تحرّكهم رسائل بريدية يومية يتصرّفون وكأن مصدرها كوكب آخر. سيخبر زملاءه أن «سفيرتنا في بيروت» زارت أحد الفنانين اللبنانيين في منزله لتهنئته بإنجاب زوجته طفلة تمنّت لها أن «تسير على خطى وأمجاد» والدَيها. ينقر على مفتاح تشغيل الفيديو ليستمتع الجميع برؤية السفيرة تتمايل مع الرضيعة في فيديو شبه راقص أنتجته بالمناسبة. سفيرة تستخدم أطفالاً رُضّعاً في حملاتها الإعلانية! يتفرّق الجميع، كل إلى عمله، فيما يغرق هو في كرسيّه الملّ، قاضماً الـ«بايغل» المحشوّة برقائق السلمون. بعد بعض التثاؤب، ينطلق في العمل: لبنان.

راتبه السنوي لا يصل إلى مئة ألف دولار، لا يمكنه ادّخار سوى بضعة آلاف منها بسبب ارتفاع كلفة المعيشة في واشنطن. صحيح أنه غير قادر على الاستغناء بالوجبات الشهية التي تقدمها المطاعم المحيطة مثل Founding farmeres dc وFiola mare وCirca of foggy bottom، وصحيح أن الحدائق والمتاحف والنصب التذكارية الضخمة المحيطة بمكان عمله أصبحت ملّة مع مرور الوقت. لكنه قادر على تسلية نفسه طالما هو، فعلياً، موجود في مطبخ الإدارة الأميركية أو عقلها، وقادر على صناعة أي شكل من الفوضى في بلد لم يكن قد سمع به قبل بضع سنوات. ولا يعرف عنه سوى أنه «جار مزعج لصديقتنا اسرائيل، لا ينبغي أن يهدأ أو يستقرّ ما لم تطلب هي ذلك». بات يحفظ أزرار الـ«كيبورد» أمامه عن ظهر قلب. يمكنه بكبسة زرّ أن يحرّك سعر الصرف هبوطاً أو صعوداً، طالما تتحكّم إدارته بقرار المصرف المركزي اللبناني، وبكبسة أخرى أن يحرّك مجموعات تموّلها إدارته لقطع الطرق، ويمكنه بكبسة ثالثة أن يلفت الأجهزة الأمنية اللبنانية التي لا تعرف عنه شيئاً (لكنها تُموّل من إدارته) إلى مساعدة «المحتجّين» في قطع الطريق بدل فتحها وحماية المؤسسات المنتخبة بديموقراطية.

هذا زرّ رابع لقطع أدوية الأمراض المزمنة بحكم خضوع رجال الأعمال الرئيسيين في البلد للتهديدات الأميركية، وزرّ خامس لمنع استجرار الكهرباء من مصر والأردن، وسادس لـ«أصدقائنا» في الداخل لعرقلة بناء معامل للكهرباء. زرّ سادس يلزم المنظمات الدولية العاملة بالحفاظ على استراتيجية تمويل بقاء النازحين بدل تمويل عودتهم. بكبسة زر سابعة يمكنه أن يعمّم عبارات يتناوب عشرات السياسيين على ترددها ببغائياً، ويستنفر بزرّ ثامن عشرات وسائل الإعلام المموّلة من إدارته للتلاعب بالرأي العام. أما أكثر ما يسلّيه فهو زر الـ«ريسايكل بين» حين تنتهي صلاحية أحد الإعلاميين أو السياسيين أو الضباط أو القضاة. بعد الانتهاء من تسلية الأزرار، يكتب موجزاً إلى مسؤوله بما أنجزه اليوم، ثم ينقر أيقونة «نتفليكس» على شاشته ليكمل المسلسل الذي كان يشاهده في منزله، في انتظار انتهاء ساعات العمل الثماني.

الموظف الذي استُبدل اسمه برقم تعريفيّ وأجر شهريّ عندما يمرّ بمحطة وقود في جادة فيرجينيا، في طريق عودته إلى محطة الباص، يتخيّل الازدحام أمام محطات الوقود في ذلك البلد البعيد الذي يتحكّم بمحطات الوقود فيه بكبسة زرّ تاسعة. الأضواء المحيطة تسبّب له صداعاً وهو يتخيّل تلك الشعوب الممنوعة من الكهرباء. إنها معدته الفارغة، يقول لنفسه، ويمضي صوب آخر الشارع قاصداً بائع الـ«هوت دوغ» المصريّ الذي لا يزال يحافظ على تسعيرته نفسها (5 دولارات) رغم ارتفاع الأسعار في هذه المنطقة بشكل جنوني. لا يعير السيّاح المغتبطين بنصب ألبرت أينشتاين البرونزي الضخم أي اهتمام. يتذكّر حين أرسل إلى زوجته، في اليوم الأول لعمله، صورته «سلفي وأينشتاين خلفي» جالساً في حضن التمثال فخوراً بنفسه ووظيفته. يعود خطوتين ويلتقط كاميرا هاتفه ليرى البؤس في ملامحه. تمرّ به أسراب من الموظفين العائدين إلى منازلهم والمراهقين الذين يقصدون الحدائق على الـ«سكوتر» الكهربائية بسبب ارتفاع أسعار مواقف السيارات وكلفة النقل. يتفقد محفظته. يتذكّر أن هناك زراً على الـ«كيبورد» أفقد أكثر من أربعة ملايين شخص مدّخراتهم في ذلك البلد الذي لا يعرف عنه شيئاً. يقول لنفسه: كنت لأفقد عقلي لو أضعت محفظتي. ماذا يفعل من فقدوا مدّخراتهم! كيف يطرد هذه الأفكار! كيف يفعل هذا كله! يتخيّل نفسه ذلك الموظف الذي رضخ يوماً لطلب إسقاط قنبلة ذرية فوق مدينة يابانية آهلة! كم قنبلة نووية يسقط يومياً عبر تلك الأزرار اللعينة. يتخيّل كيف تتناحر الطوائف بشكل قبليّ همجيّ مرعب وتتقاتل شعوب بكبستين منه للسياسيين ووسائل الإعلام. لا يعرف ما إذا كان عليه أن يضحك فعلاً!

يقطع الطريق عند إشارة السير لينتقل إلى الضفة الأخرى ليشعر بهواء نهر بوتومك البارد يلفح وجهه. حين استقر في واشنطن، كان يتخيّل أنه سيصطحب أولاده يومياً إلى ضفة النهر، أو إلى حديقة الدستور ليلعبوا بالكرة، أو ليستمتعوا بتماثيل الفرسان والأنصبة على طول الطريق في جادة بنسلفانيا بين البيت الأبيض ومبنى الكابيتول. لكنه لم يعد يجد الحماسة لهذا كله. ينهكه الملل، أو ربما يخبّئ حقيقة مشاعره خلف عنوان الملل. في الواقع، يشعر بالاشمئزاز من نفسه: لا يفعل شيئاً لقاء هذا الأجر الزهيد سوى تخريب حياة الشعوب؛ لا يكاد ينهي جولة تخريب حتى يبدأ أخرى.

تغيّرت علاقته بنصب واشنطن الرابض في متنزّه ناشونال مول قبالة الكابيتول، وكذلك النصب التذكاري للحرب العالمية الثانية، ونصب لنكولن التاريخي المطلّ على «بوتومك». تغيّرت علاقته ونظرته إلى لنكولن نفسه؛ وهذا الحلم كله. هو يعلم أنه وزملاءه في ذلك المبنى المملّ لا ينقذون الكوكب أو يساعدون شعوبه، وأنهم جميعهم يعلمون الحقيقة كاملة. كل منهم مجرّد زرّ يكبس أزراراً وفقاً لما يمليه البريد الإلكتروني الصباحي. زرّ في ماكينة كبيرة لا تشعر أو تفكر، ولا تؤثّر فيها أخلاق أو قيم، ويغمرها شغف دائم بالتخريب.

قصّة أوّل صهيوني عربي مُجاهر في أميركا: عن فؤاد عجمي

أسعد أبو خليك *

هذه مراجعة نقديّة لكتاب صدر لفؤاد عجمي بعد وفاته، بعنوان «عندما فشلَ السحر: مذكّرات لطفولة لبنانيّة»، عالقة بين الشرق والغرب»، والصادرة عن دار نشر «بومباردير» (لم أسمع بها من قبل).

لم أكن قد سمعتُ الكثير عن فؤاد عجمي عندما وصلتُ إلى أميركا في عام 1983. عرفتُ من قصّته أنه كان من أرنون في جنوب لبنان وأنه شذّ بصورة عامّة عن الرأي العام العربي في حينه، من ناحية التأييد العارم للشعب الفلسطيني وقضايا التحرّر العربي. وكان ذلك قبل أن أسمع من إدوار سعيد عن فراقه عن عجمي: كيف أن عجمي أرسلَ (فجأة) رسالة

> دوره تعاظم قبل الغزو الأميركي في 2003 وبعده، عندما كان «صديقه» ديفيد بتريوس يدعوه إلى بغداد للمشورة الاستعماريّة
>
> الكتاب شبه مبتور وهو من دون مبالغة من أسوأ كتب فؤاد عجمي، لكن من أكثرها فائدة في المساهمة في فهم شخصيّته ومساره السياسي

طويلة لسعيد طالبه فيها بقطع الصداقة بينهما (كان ذلك في منتصف الثمانينيّات). احتاج عجمي في انحداره المستمرّ (هو صعود بمقياس جريدة «النهار») أو إعلام الرجعيّة) إلى أن يقطع صلاته ببداعة القضيّة الفلسطينيّة في الغرب. لم تمرّ إلا بضعة أعوام قبل أن يكون عجمي خطيباً في حفل لجمع التبرّعات للمستوطنات الإسرائيليّة. أصدر عجمي كتاب «الإمام المختفي: موسى الصدر وشيعة لبنان» في عام 1987، فكتبتُ في هجائه أوّل مراجعة لي. وكان صدور الكتاب مترافقاً مع ظهور كثيف لعجمي في وسائل الإعلام الغربيّة زمن الرهائن الغربيّين في لبنان. وكانت لهجته عن العرب ملؤها الاحتقار والتشفّي. هو زادَ سوءاً في مواقفه وعنصريّته عبر السنوات، لكنه كان سيئاً جداً في سنوات وصولي إلى الولايات المتحدة.

وصعود عجمي في الأكاديميا الأميركيّة كان غريباً جداً، من الناحية الوظيفيّة. درس في «كليّة شرق أوريغون – بات اسمها اليوم «جامعة شرق أوريغون» (ولم يسمع بالكليّة معظم الشعب الأميركي، ولم أكن أنا قد سمعتُ بها) قبل أن ينتقل إلى جامعة «واشنطن في سياتل»، وهي جامعة حسنة، لكنها ليست بارزة. لا أهتمّ بتراتبيّة الجامعات ولا بسلّم الوجاهة، لكن تلقّي عجمي عرضاً من جامعة «برنستون» في عام 1973 بعد تخرّجه من «سياتل» كان جدّ مستغرباً. يندرُ جداً أن تعرض جامعة «برنستون» المعروفة وظيفة على حامل شهادة دكتوراه من «كليّة أوريغون الشرقيّة» وحتى من «جامعة واشنطن في سياتل». عملَ عجمي في برنستون وكان محافظاً سياسياً قبل أن ينحو نحو اليمين الصهيوني. غير صحيح أنه كان عروبياً ومتحمّساً لفلسطين. هناك تلك المناظرة التي أطلقت الطالب نتنياهو في عام 1978 عندما كان عجمي في صفّ الفريق المناصر لفلسطين، اسمياً في المناظرة. لكن لهجته كانت باردة، وكان شديد الاحترام للشخص الذي يقف أمامه والذي كان قد عاد لتوّه من مهمّات عسكريّة عدوانية في البلد الذي وُلد فيه عجمي. وحتى في «جامعة واشنطن في سياتل»، يقول عنه زميلٌ له من تلك الأيّام إنه لم يكن متحمّساً للعروبة أو فلسطين كما باقي العرب. مشروع عجمي بدأ مبكراً، وهو مشروع السفر نحو الرجل الأبيض وارتداء ما يليق بعمليّة التحوّل من ملوّن إلى أبيض. هي رحلة كان قد مشيها قبله في إس. تيبال (وكان عجمي شديد الإعجاب به). نالَ عجمي منصباً في جامعة برنستون وكان قريباً من عميد المستشرقين اليهود/يّين، برنارد لويس. وفي 1980، بعد تقاعد المستشرق العراقي الأصل، مجيد خدّوري، من رئاسة قسم دراسات الشرق الأوسط في «كليّة الدراسات الدوليّة العليا» في جامعة «جونز هوبكنز»، تنافس اللبناني إيلي سالم (وزير خارجية 17 أيّار) مع عجمي لخلافة خدّوري (لم يكن خدّوري يريد التقاعد. وعندما كرّموه في حفلة ومنحوه ساعة تذكاريّة، صرخ بوجههم: أنتم لا تكرّمونني، بل تدفعوني دفعاً كي أتقاعد). كان خدّوري، الذي خرّج عدداً كبيراً من طلبة الدكتوراه، متخصّصاً في القانون الإسلامي، يفضّل أن يخلفه إيلي سالم، الذي درس على يديه في أواخر الخمسينيّات وكتب أطروحة عن الفكر السياسي للخوارج. النافذون في الجامعة اختاروا عجمي. وبسرعة، كشف عجمي عن مشروعه. قال عجمي في صيف 1986 في شهادة أمام الكونغرس الأميركي، إن «السنّة هم مجرمون، بينما الشيعة هم انتحاريّون». لا أزال أذكر ضحك، لا بل قهقهة أعضاء الكونغرس عندما فسّر لهم عجمي الفرق بين السنّة والشيعة. هذا النوع من الكلام الكريه لا يجرؤ على النطق به الرجل الأبيض، وهنا دور عجمي: أنه كان ينطق بما لا يجرؤ الرجل الأبيض على النطق به في زمن الصوابية السياسيّة.

أوّل كتاب لعجمي كان كتاب «المحنة العربيّة» وهو ليس إلا مجموعة خواطر تندر فيها الفطن، على رأي حنا بطاطو. ويضيف عجمي الكثير من الكلمات العربية في كتاباته الشديدة الإنشائيّة بالإنكليزيّة كي يبهر القارئ الغربي بمعرفته الداخليّة عن العنصر العربي. هو الذي يشرح للغربي عن تضليل وخداع ورياء العرب أجمعين. أمّا كتاب «الإمام المختفي» فقد كتبه من دون أن يكون قد زار لبنان والتقى بأصدقاء واتباع موسى الصدر. اعتمد الكتاب على مقابلة وحيدة مع حسين الحسيني. أذكر عندما زار حسين الحسيني نيويورك في الثمانينيّات، فاصطحبته الخبيرة جوديث كبير، كما أخبرتني للقاء الحسيني. أجاب الحسيني عن أسئلته، ثم كان يسأل ابنه عبر الهاتف عن موسى الصدر. الكتاب يخلو من كنه البيئة الجنوبيّة التي وُلدت ظاهرة موسى الصدر، وعن مدى المعاناة من جراء العدوان الإسرائيلي. لكن عجمي لا يؤمن بشيء اسمه عدوان إسرائيلي. العدوان في الجنوب هو فلسطيني محض. والغريب أن الكتاب المذكور تُرجم إلى العربيّة ونُشر برعاية من حركة «أمل» نفسها. الكتاب هو (كما راجعته في «ميدل إيست ريبورت» في 1987) نتاج التلاقي بين منهج الاستشراق التقليدي ومنهج الدراسات (غير الأكاديميّة) للإرهاب. فؤاد عجمي أنعش فرضيّات الاستشراق العنصريّة بعدما ضعضع إدوار سعيد (في كتابه «الاستشراق») ثقتها بنفسها. والكتاب مليء، على عادة عجمي، بالمغالطات. اعتبر أن الحرب الأهلية في 1958 كانت «حادثة» محصورة في بيروت الغربيّة و«الجبال الدرزيّة» («الجبال الدرزيّة؟») بينما كانت الثورة مشتعلة في مدينة صور مثلاً. وعلى الطريقة العنصريّة التقليديّة في تصوير الشعوب في العالم العربي، يعتبر عجمي أن كل الشيعة في لبنان (وحتى خارجه) يمثّلون كتلة واحدة متراصّة حتى إنه يستعمل عبارة «النفسيّة الشيعيّة» (تماماً على طريقة البرنامج العنصري «الكوميدي» الحالي على شاشة الطائفيّة المسيحيّة المملوكة من بيار الضاهر). وأذكر أن واحداً من أعتى الليكوديين في المطبوعات الأميركيّة راجع الكتاب في «وول ستريت جورنال» وأسبغ المديح عليه.

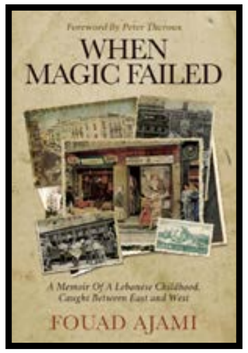

عالم فؤاد عجمي هو عالم التعميمات والتنميطات والوصف الذي ينشده الرجل العنصري الأبيض. هل لم يقل جديداً عما قاله برنارد لويس من قبله، أو قاله زعماء إسرائيليّون عن العرب. لكن الإعلام الغربي يريد سماعه لأن نطق عجمي به – كواحد منهم – يضفي عليه صدقيّة ومشروعيّة ضروريّة. مهنة فؤاد عجمي السياسيّة هي في التبرّؤ المستمر من بني جلدته وإعلانُ خروجه من العرق الملوّن العربي. هو يريد أن يقنع البيض بأنه أبيض مثلهم، وأكثر. هو بالفعل تطرّف في عنصريّته إلى درجة أن بعض البيض هنا نفروا منه. هو مثل رجل أسود أمضى عمره في طلاء بشرته كي يصبح أبيض ببياض أهل النروج. لكن حكمَ خطاب فؤاد عجمي كراهية وحقد شديد ضد الشعب الفلسطيني. الكتاب الذي بين أيدينا سيساعدنا على فهم شخصيّة عجمي.

زادت عنصريّة فؤاد عجمي وتطرّفه عبر السنوات وقطع مع أصدقاء الأمس من العرب الأميركيّين. صعد طبقياً وأصبح الخبير المنزلي في شبكة «سي بي إس» عندما كانت (بعد 1986) تحت إدارة الصهيوني لورنس تش. تعليقات عجمي عن العرب نضحت بالسخرية دائماً، ما سرّ الرجل الأبيض. لم يكن لديه فكرة مبتكرة، بل كان ينطق بثوابت العنصريّة العريقة في الاستشراق المبتذل - لا في الاستشراق الأكاديمي العليم والرصين. الذي قرأ الاستشراق الإسرائيلي يدرك فوراً أن عجمي كان ينقل ما يرد في كتابات رافائيل باتاي أو في كتابات إيمانويل سيفان أو موشي معوز أو موردخاي نيسان أو إيلي خدوري أو أفرايم كارش أو برنارد لويس نفسه. كان لدى عجمي موهبة في الكتابة الإنشائيّة بالإنكليزيّة وأحبّ ذلك قرّاء الصحف والمجلات هنا لأنها لم تكن كتابة مالوفة أكاديميّاً. ولو كان عجمي يكتب بالأسلوب نفسه في مديح العرب أو ذمّ الاستعمار الغربي لما كانت لغته تُعتبر مقبولة، وحتما كان سيكون هناك صرامة أكاديميّة في رفض كتاباته. أذكر مرّة أنني رأيتُ المؤرخ اللبناني، ماريوس ديب، في مؤتمر أكاديمي، وكان ذلك بعد تحوّله من أستاذ زعم (عندما كنتُ تلميذه في الجامعة الأميركيّة في بيروت) أنه متأثّر بماركسية حنا بطاطو إلى مقلّد لعنصريّة عجمي ومستسهل لإطلاق وصف الإرهاب على العرب. قلت لديب: انظرْ. لفؤاد عجمي موهبة في الكتابة الإنشائية وأنت تفتقر لها، كما أن الساحة هنا لا تحتمل إلا فؤاد عجمي واحداً فقط.

تعاظم دور فؤاد عجمي في الإعلام السائد هنا، وبرز في طبقة التُرثرة في العاصمة الأميركيّة. كان يقيم في نيويورك وسمحت له إدارة «جونز هوبكنز» بالسفر بضع ساعات مرتين أو مرّة واحدة في الأسبوع لتعليم صفوفه. لم يكن يتفرّغ للتعليم بحكم الدعوات السخيّة التي كان يتلقّاها من المراكز في أميركا ودول أخرى لإلقاء محاضرات (حتى إن جامعة الكويت طلبته لتقييم مواد علم الاجتماع في الجامعة، مع أنه لم يكن له دور إداري في جامعته). كان تلاميذه يقولون لي إن الصفوف كانت عبارة عن محاضرات من قبل أساتذة زائرين، من أصدقاء عجمي: يوم يأتي توماس فريدمان، ويوم تأتي جوديث ميلر، الخ. وهذه كانت في كليّة دراسات عليا للعلاقات الدوليّة (لكن القيمة العلميّة لـ«كليّة الدراسات الدوليّة العليا» في جامعة «جونز هوبكنز» كانت تندّني، وخصوصاً في قسم الشرق الأوسط بعد تسلّم عجمي له. وكان يدعو عدداً من العنصريّين من أمثاله لتعليم بعض المواد بصفة التعاقد. لا أذكر أن عجمي خرّج خبراء في الشرق الأوسط من حملة الدكتوراه، بعكس سلفه مجيد خدّوري الذي خرّج أجيالاً حول العالم من المتخصّصين في الشؤون الشرق الأوسط).

برز عجمي في الحرب ضد العراق في 1990-1991 وتعرّف على جورج بوش الأب. أصبح يتخصّص بنقل النصيحة الصهيونيّة الشهيرة، حول أن العرب لا يفهمون غير لغة القوّة (وكانت حنة أرندت قد ردّت على تلك المقولة الصهيونيّة مبكراً في أوائل الخمسينيّات عندما جزمت، بعكس مقولات الصهاينة، بأن اللغة الوحيدة التي لا يفهمها العرب هي لغة القوّة). تعرّف ديك تشيني والمحافظون الجدد على فؤاد عجمي ووجدوا فائدة جمّة منه، لكن دوره تعاظم قبل الغزو الأميركي في 2003 وبعده، عندما كان «صديقه» ديفيد بتريوس، القائد العام للقوّات الأميركيّة في العراق، يدعوه إلى بغداد للمشورة الاستعماريّة. بات مقرّباً من جورج دبليو بوش الذي قلّده، مع برنارد لويس، وساماً رفيعاً في البيت الأبيض. كيف لا يكرّمه وهو العربي الذي جاهر بتأييد غزو العراق وجاهر في المطالبة بالمزيد من القصف والوحشيّة ضد شعب العراق (مثله في هذا مثل كنعان مكيّة الذي برز مُقلّداً هو الآخر لعجمي، مع أن الشعب العراقي والجمهور الليبرالي هنا نبذه وخصوصاً بعدما كان يكتب في مجلات صهيونيّة مطالباً بقصف مقارّ وسائل إعلام في بغداد). سعى الناشر مارتن بيرتز (انظر أدناه)، وكان يعلّم صفاً في اللغة الإنكليزيّة في هارفرد، كي يحصل عجمي على عرض للتعليم في الجامعة الشهيرة. زار عجمي الجامعة، وكتبت مجلّة الجامعة، «ذا كريمزن»، مقالة عن زيارته وعن العرض الأكاديمي له. كان ذلك في عام 1992 وكنت في زيارة بحثيّة في الجامعة وقابلت الأستاذ العراقي فيها، محسن مهدي. وكان مهدي قد تسلّم في عام 1970 رئاسة قسم الشرق الأوسط في الجامعة بعد تقاعد هاملتون غيب (تسلّم مهدي إدارة مركز دراسات الشرق الأوسط بعد انتقاله إليها من جامعة شيكاغو). وفي المقالة عن زيارة عجمي للجامعة، استشهدت المقالة بأستاذ في الجامعة، طلب ألا يُذكر اسمه في المقالة، أخبرني مهدي أنه هو كان الذي استشهدت به المقالة في نقد عجمي. وقال مهدي: لا مانع أن يندّ الدول العربيّة، لكن لهجته شديدة التبجيل والاحترام في ما يتعلّق بدول الغرب وسياساته. وقال مهدي: إنه يعرف عن عجمي من ظهوره الإعلامي وليس من إنتاجه الأكاديمي. درس عجمي العرض، وطلب أن تبقى إقامته في مدينة نيويورك كما أنه طلب ألا يدرّس صفوف السنة الأولى والثانية. أفهمته إدارة الجامعة أن وجوده ضروري في المدينة، كما أن التقليد التاريخي في الجامعة أن يواظب الأساتذة، حتى حملة شهادات نوبل في اختصاصهم، في تعليم طلاب السنة الأولى. رفض عجمي العرض وحافظ على وظيفته في «جونز هوبكنز» قبل أن ينتقل إلى كاليفورنيا في «مؤسّسة هوفر» اليمينيّة التابعة لجامعة ستانفورد، وإن كانت مؤسّسة أبحاث لا تملك صلاحية تخريج تلامذة.

مات فؤاد عجمي في عام 2014، وقبل أشهر علمنا أن زوجته عثرت على مخطوطة له عن سنوات طفولته في جنوب لبنان ثم الكرنتينا. عمل ليون فيزلتير على نشرها في كتاب (ليون فيزلتير واحد من صهاينة المجلّة المتطرّفة «ذا نيو ريبلك» عندما كانت مملوكة من مارتن بيرتز، الذي جعل من المجلّة من أكثر الأصوات تطرّفاً ضد الشعب الفلسطيني المجلّة الآن تحوّلت باتجاه ليبرالي أقلّ صهيونيّة عما كانت عليه. وليون فيزلتير فقد وظيفته في زمن «وانا أيضاً»، عندما ظهر إلى السطح عنه تاريخ طويل من اتهامات بالتحرّش الجنسي ضد عاملات في المجلّة). الكتاب شبه مبتور، وهو من دون مبالغة من أسوأ كتب فؤاد عجمي لكن من أكثرها فائدة في المساهمة في فهم شخصيّته ومساره السياسي. الكتاب أفضل تعريف لشخصيّة عجمي. تكتشف في الكتاب أن الرجل نبذ أهله وبلده قبل أن يغادره. وهو عانى كثيراً من شظف العيش، ولهذا سعى جاهداً كي يصعد السلّم الطبقي بسرعة. ترك لبنان في عام 1963 بعد الدراسة الثانويّة ولم يزره لنحو عقدٍ من الزمن. تعرّفت على عرب كثيرين في الجامعات الأميركيّة ولم أسمع في حياتي عن طالب عربي جاء إلى أميركا بهدف الدراسة الجامعيّة وغاب عن بلده لعقد من الزمن. لا يمكن أن أتصوّر طالباً لبنانيّاً يترك لبنان لهذه الفترة الطويلة. عجمي كان في مهمّة، والمهمّة تطلّبت أن يبتعد جغرافياً ونفسيّاً عن بلد منشئه. في كل ما كتبه عن العرب، وخصوصاً عن أهل الجنوب في الكتاب، تجد المذمّة والاحتقار الذاتي. وهذا الاحتقار الذاتي يفسّر المسيرة التي تقلت عجمي من حي الكرنتينا إلى المجاهرة بالصهيونيّة.

والصهيوني ليون فيزلتير، الذي سبق ذكره، يقرّظ الكتاب في غلافه ويقول: «لم أقرأ قطّ عرضاً فاتناً للخيبة أكثر من هذا... ولم أعرف أبداً رجلاً أكثر انغماساً باستقلالية في ثقافته من فؤاد عجمي». طبعاً، فيزلتير يعني الثقافة العربيّة، لكن هذه الشهادة تبطل كل مسيرة عمل عجمي. عجمي سعى كي لا يُحسب على العرب وعلى الثقافة العربيّة. لكن فيزلتير يعترف بأنه بالرغم من إعجابه وصداقته معه، فإنه لا يستطيع أن ينظر إليه إلا كرجل ملوّن من جنوب لبنان. فشلت مسيرة عجمي في هذا الاعتراف – الذمّ في معرض المديح. لا يستطيع الأسود أن يطلي بشرته، كما أن العربي في الغرب لا يستطيع أن يصبح رجلاً أبيض مهما اعتنق من الفكر العنصري الأبيض. الطريف طبعاً أن فيزلتير يحكم على عمق انغماس رجل عربي بالثقافة العربيّة، مع أن الحكم صادر عن رجل لا علاقة له بالثقافة العربيّة والشرق الأوسط، باستثناء شدّة مناصرته للصهيونيّة. عجمي نفسه صرّح في مقابلة مع داود الشريان بأنه يعتبر نفسه أميركياً لا عربياً وأنه أكثر أميركيّة من الأميركيّين أنفسهم. لو أن فيزلتير شاهدَ تلك المقابلة لعجمي لأدرك أن مديحه مذمّة في اعتبار عجمي. ولدَ الرجل غريباً في لبنان، ومات شديد الأميركيّة في أميركا.

(يتبع)

* كاتب عربي - حسابه على تويتر @asadabukhalil

أزمة الحريري وأزمة لبنان

سعد الله مزرعاني *

بشكل من الأشكال، مرت مسالة «اعتكاف» رئيس الوزراء الأسبق، سعد الحريري، وكأنها حدث «عادي» أو «طبيعي». هذا الحدث «العادي» أملى أن يعتزل رئيس تيار «المستقبل» العمل السياسي بشكل شبه كامل. أملى عليه، أن ينسحب وتياره من المشاركة في الانتخابات النيابية التي أجريت في الربيع الماضي. أملى كذلك، أن يُمنع من الإقامة في بلده وفي منزله، وأن يوضع في شبه إقامة جبرية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وتحت رقابة غير مباشرة من قبل ولي العهد السعودي بواسطة حليفه الإماراتي محمد بن زايد.

لم يتساءل الرأي العام السياسي اللبناني التقليدي، لماذا حصل ذلك وكيف له أن يحصل؟! انصبّ الاهتمام فقط على ماذا سيحصل بعد، وهل ستعود المياه إلى مجاريها بين ولي العهد السعودي وسعد الحريري؟! سعد نفسه، وبالعمق، لم يتساءل عن مسؤولية والده عن نسج علاقة مع قيادة المملكة، على هذا النحو من «الهونة» والالتحاق.

حصل ذلك، ويستمر، على رغم الخطوات والتدابير الحادة والصاخبة التي رافقت انفجار النقمة السعودية على وارث رفيق الحريري، الذي كان أقرب إلى الأسرة المالكة السعودية من حبل الوريد! الواقع أن ولي العهد السعودي، في نوبة غضب وعجز متصاعد و خسائر فادحة في الأرواح والمعنويات والأموال، منذ غزوه اليمن عام 2016، قد قرر تجاهل صمود «أنصار الله» (الحوثيين) وتوجيه نقمته إلى طرف خارجي هو إيران ومعها «حزب الله» اللبناني. كان على سعد الحريري أن يتولى مواجهة «حزب الله» في لبنان لإشغاله عن دوره اليمني الذي يعتقد ابن سلمان أنه كبير وأنه يجب أن يتوقف وأن يدفع «حزب الله» الثمن في لبنان وليس في أي مكان آخر. كان لسعد الحريري رأي آخر: واضح وحاسم أبلغه للملك السعودي، كما ذُكر قبل فترة وجيزة من احتجازه: «حزب الله» قضية إقليمية، ولا قدرة لي ولا للبنان على معالجتها»! وهكذا جاء الرد سريعاً من وليد العهد: الاحتجاز والإكراه والإهانة. كان سعد رئيساً للحكومة اللبنانية. رغم ذلك، لم يتردد ولي العهد في استدراجه واختطافه. استدعى ذلك ردّ فعل دولياً إزاء تصرف غير معتاد في تقاليد العلاقات بين الدول! اضطر ابن سلمان للإفراج عن الحريري من دون أن يتراجع عن مطالبه وخطته: إمّا أن يعمل سعد وفق ما تمليه السعودية أو أن لا يعمل إطلاقاً! هكذا جاء الاعتكاف المزعوم «طوعياً» فيما هو ثمرة عملية ضغط وإكراه ومنع من العمل السياسي بالكامل. جاء ذلك في امتداد محاولات لاستبداله بأخيه بهاء، وبعد دفعه إلى الإفلاس والإقفال خصوصاً «مملكة سعودي أوجيه». لقد أفلس سعد وأذل وقُمع ومُنع، فيما كان «سياديون» منافقون يحجون إلى السعودية للتحريض عليه ولنيل «بركات» المملكة وولي عهدها!

> الواقع أن هذا التهاون بالاعتداء على سيادة لبنان، هو امتداد لما طبع نهج ومواقف مجمل فريق السلطة مع الأزمة الطاحنة التي عصفت بلبنان

يحدث للمرة الأولى، ربما، في تاريخ العلاقات بين الدول، أن يفرض على رئيس حكومة أن يستقيل من قبل سلطة خارجية، ثم يفرض عليه، عندما لم يستجب لأوامر تلك السلطة بإدارة فتنة أهلية في بلده، أن يصبح مطارداً سياسياً واقتصادياً وشخصياً، ثم يُمنع من ممارسة العمل السياسي في بلده تحت التهديد والوعيد!

مرّ حادث اختطاف الحريري، في لبنان، بأقل قدر من الاهتمام الجدي. تركز المطلب اللبناني، كما أشرنا، على إنهاء العملية، لا على البحث في أسبابها.

ويخوض معظم الإعلام في بيروت، ويخوض العديد من القوى الحزبية ذات الاتجاه اليميني، معركة ضارية لمصلحة السعودية وسلطاتها على رغم مسؤولية ولي العهد عن اغتيال الصحافي جمال الخاشقجي بأوقح وأبشع الوسائل في القنصلية السعودية في إسطنبول بعد أقل من سنة على احتجاز الحريري. يندرج ذلك ضمن دعم خطة ولي العهد السعودي لتحويل المملكة باتجاه الاستهلاك و«الترفيه»، وللانتقال من الاعتماد على التيار الديني ومؤسساته القمعية قاعدة للنظام الملكي المطلق، إلى الاعتماد على الطبقة التجارية الكبرى والطبقة الوسطى. تستقطب المملكة الآن، وفرة وفيرة من الفنانين والفنانات، من لبنان خصوصاً، فضلاً عن الكثير من الإعلاميين من صنف المرتزقة ممن لا يزالون يتكاثرون يوماً بعد يوم. أمّا على المستوى الشعبي، فقد كان الوجوم سيد الموقف بالنسبة للتيار «الأزرق» الذي لم يحرك ساكناً تحت وطأة التهيب والمفاجأة. أمّا سبب ذلك التعامل البارد، نسبياً، فيجب البحث عنه في خلل العلاقات بين قوى الداخل (كمنظومة وكأطراف) وبين الخارج. لقد تكرست، منذ نشوء الكيان اللبناني، علاقة مرضية مع الخارج الاستعماري والإمبريالي تقوم على التبعية والالتحاق سياسياً واقتصادياً، بهدف الحماية من جهة، أو بهدف تغيير التوازنات عندما يكون الاستقواء بالخارج ضرورياً. ولقد توسعت وترسخت هذه العلاقة بأبعاد اقتصادية وسياسية وطائفية ومذهبية حتى تحولت «ثقافة» قائمة بذاتها «يعتز» بها لبنان وبسواها «يهتز» كما لخّص أحد منظري «الصيغة اللبنانية الفريدة»! إذاً، لقد اندفع أرباب منظومة التحاصص في طلب الولاء والتبعية للخارج والاستقواء به، ما جعل الأمر يقع خارج كل تعارض مع السيادة التي امتهن فريق من اللبنانيين أن ينادي ويباهي بها، حتى وهو يُدير علاقات تنسيق وتعاون مع أعداء لبنان بمن فيهم العدو الصهيوني!

الواقع أن هذا التهاون بالاعتداء على سيادة لبنان، هو امتداد لما طبع نهج ومواقف مجمل فريق السلطة مع الأزمة الطاحنة التي عصفت بلبنان وباللبنانيين فحوّلت أكثريتهم الساحقة فقراء بفعل النهب واللاوصية والفساد. على رغم كل ما تكشّف من فشل النظام وعجزه وإفلاسه، فقد رأب أقطاب سلطة المحاصصة على التمسك به، بشكل كامل. وهم بعد أن أضعفوا البدائل التغييرية التي رفعت شعارات إلغاء الطائفية السياسية والمواطنة المتساوية والعدالة الاجتماعية وبناء دولة قانون ومؤسسات، نجحوا كذلك في تجويف تغييريي 17 تشرين بحيث اقتصرت مطالبهم على نقد الحكام من دون النظام الذي هو سبب الانهيار والتوترات وعدم الاستقرار، والتبعية هي بمثابة القلب من الجسد. في كل تعاملهم مع الأزمة، رأب أقطاب المحاصصة الذين يدّعون الدفاع عن مصالح هذه الطائفة أو ذاك المذهب، على الدفاع عن مصالحهم، أي عن مصالح البرجوازية الكبرى في حقيقة الأمر، وبالتالي، وبالتأكيد، عن نظامها التبعي الحالي الذي يتحمل المسؤولية الأساسية عن انهيار لبنان وتدمير مؤسّساته وتجويع شعبه وتعريضه للتشريد والهجرة والإفلاس والضياع.

سعد الحريري تمرّد، جزئياً، على مرجعيته السياسية الطائفية، فكان ضحية، وينبغي أن يصبح عبرة! هو تراجع و«انكفأ» من دون أهوال وتهديدات كبيرة كانت وما زالت تستهدفه. لكن في مرحلة ما، تصرف بمسؤولية، تمرّد، رفض الفتنة... وانطلق في ذلك من مصلحة لبنان واللبنانيين ودفع الثمن!

لا بدّ لأي مشروع تحرري لبناني من أن يبدأ من الأزمة الحقيقية لا من قشورها فقط.

* كاتب وسياسي لبناني

ملف

في اليوم الثاني عشر بعد الكارثة، تتواصل عملية حصْر الأضرار على الضفّة السورية. حيث يبدو أن الزلزال لم يتسبّب فقط في تحريك الصفيحتين العربية والتركية وهدْم آلاف المنازل فوق رؤوس أصحابها، وإنّما سيكون سبباً أساسيّاً أيضاً في تحريك طبقات تصنيف الأمن الغذائي والفقر في عموم البلاد. تخلخلٌ لن تكون محافظة حماة مستثناةً منه، إذ على الرغم من أنها تتذيّل قائمة المناطق المتضرّرة، إلّا أن احتفاظها على مدار السنوات الماضية بأسوأ المؤشّرات الاقتصادية والاجتماعية، سيجعل من محدودية الخسائر «الزلزالية» وعدمها، بالنسبة إليها، متساويَيْن. وإذ تظلّ عيون سكّان حماة وبقيّة المناطق المنكوبة مثبّتة على إجراءات الإغاثة المنتظَرة، خصوصاً في ما يتّصل بمعالجة مشكلة السكن للأسر التي تضرّرت منازلها، فإن تحدّياً كبيراً يبدو ماثلاً أمام الحكومة في أعقاب الواقعة، متمثّلاً في الحركة الداخلية التي تجدّدت من جرّاء الزلزال. وإعادت لخبطة حجارة «دومينو النزوح»، الذي يبدو أقرب إلى لعنة تُلاحق السوريين من هاوٍ إلى آخر، على المقلب التركي.

يستمرّ تحويل كلّ العناوين المتّصلة بالكارثة إلى موادّ خلاف وتنابُز سياسيَّيْن، مثلما حصل في أعقاب إطلاق حملة «تركيا قلب واحد» للتبرّع لضحايا الزلزال ومنكوبيه، إذ وجدت المعارضة في حقيقة كوْن ثُلُثَي التبرّعات المجموعة من خلال هذه الحملة، اتيَيْن من بنوك أو مؤسّسات تابعة للدولة، بوّابة لتصعيد هجومها على الرئيس رجب طيب إردوغان. المتّهم من قِبَلها بتركيز اهتمامه على «كيفية إيجاد مخارج دستورية ليبقى في السلطة، ومن ذلك تأجيل الانتخابات»

بؤر النكبة السورية [4/4]

حماة... غريقة الفقر لا تخشى «بلك» الزلزال

زياد غصن

هي أقلّ المحافظات الأربع لجهة حجم الخسائر البشرية والمادّية المباشرة التي خلّفها الزلزال الأخير، إلّا أن تلك الخسائر تبْقى مع ذلك كبيرة ومؤثّرة، في ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية الضاغطة منذ سنوات على معيشة الأسر السورية. فالحصيلة الحكومية غير النهائية تتحدّث عن تضرُّر أكثر من 7150 منزلاً على امتداد مساحة حماة، إضافة إلى أكثر من 265 مدرسة، و131 خزّان مياه للشرب، و116 بناء حكومياً، وغيرها. على أن المفارقة في أوضاع المحافظة الوسطى في البلاد اليوم، أن وجودها في أدنى قائمة المناطق المتضرّرة في وقت تحتفظ فيه بأسوأ المؤشّرات الاقتصادية والاجتماعية، على الأقلّ مقارنة مع حلب واللاذقية، يجعل من محدودية خسائرها «الزلزالية» كعدمها. فهي مثلاً، تحتوي ثالث أكبر نسبة للأسر التي تعاني أنعاماً شديداً في أمنها الغذائي على المستوى الوطني مع نهاية عام 2020 بعد كلّ من الرقة ودير الزور، حيث قدّرت نسبتها بحوالى 11,3%، لا بل إن حماة هي الأولى من حيث نسبة العوائل التي تعاني انعداماً متوسّطاً في أمنها الغذائي (56,5%)، وهي أيضاً أقلّ محافظة في نسبة أُسرها الآمنة غذائياً والتي لم تتعدّ 1,8%، فيما تُبلغ هذه النسبة على المستوى الوطني حوالى 5,1%.

أمام المعطيات المتقدّمة، والتي من دون شكّ تغيّرت نحو الأسوأ بعد عام 2020 لأسباب بات الجميع يعرفها، فإن الزلزال لم يتسبّب فقط في تحريك الصفيحتَين العربية والتركية وهدْم آلاف المنازل فوق رؤوس أصحابها، وإنّما سيكون سبباً أساسياً في تحريك طبقات تصنيف الأمن الغذائي والفقر في عموم البلاد، وفي المحافظات المنكوبة خصوصاً. إذ يُتوقّع أن تنزلق الأُسر التي كانت تُصنَّف على أنها مُهدَّدة بأمنها الغذائي إلى خانة تلك التي تعاني انعداماً متوسّطاً وشديداً في هذا الأمن. والحال نفسه بالنسبة إلى معدّل الفقر، والذي كان يبلغ في عام 2019 حوالى 87% كمعدّل للفقر الإجمالي على مستوى حماة، وحوالى 72% كفقر شديد. وفي ذلك توقّع تَدعمه مؤشّرات عدّة أبرزها: استمرار ارتفاع وسطي معدّل التضخّم الشهري المسجّل في المحافظة خلال النصف الأوّل من العام الماضي، والبالغ حوالى 6,23% مقارنةً بحوالى 5,27% في عام 2021، فضلاً عن ارتفاع نسبة السكّان الحاصلين على معونات إغاثية، والذي يعطي دلالة على حجم الفجوة المعيشية التي تعيشها العوائل في هذه المحافظة وغيرها.

تقدّر البيانات الرسمية نسبة الضرر الحاصل في حماة بحوالى 7,5% (أ ف ب)

ضررٌ على ضرر

خلال العقد الثاني من القرن الحالي، ارتفع عدد سكّان حماة من حوالى 1,5 مليون نسَمة في عام 2010، إلى حوالى 2,1 مليون نسمة في عام 2020، أي بمعدّل نموّ قدْره 2,94%. وهذا مردّه الأساسي، استقبال المحافظة نازحين فاق عددهم مَن خرج منها، بحسب ما تكشفه البيانات الرسمية لعام 2018. والتي أشارت إلى أن عدد السكّان الوافدين إلى حماة قُدّر بحوالى 477 ألف نسمة، معظمهم جاؤوا من حمص (160 ألف نسمة)، ثمّ من حلب (64,6 ألف نسمة)، فإدلب (61 ألف نسمة). وفي المقابل، يقدّر عدد السكّان الذين نزحوا عن مناطقهم نحو مناطق أخرى داخل المحافظة نفسها، بحوالى 141 ألف نسمة، فيما سُجّل خروج حوالى 231 ألف نسمة إلى خارج حماة كلّياً.

> سيكون الزلزال سبباً أساسياً في تحريك طبقات تصنيف الأمن الغذائي والفقر في عموم البلاد

مثّل هذا النموّ السكّاني السريع، عبئاً حماة بذلك المرتبة الخامسة بين المحافظات المتضرّرة، بينما وصلت نسبة الضرر في وحداتها السكنية إلى حوالى 10%، معظمها متركّز في الريف، الذي يشكّل سكّانه حوالى 63% من إجمالي عدد السكّان، مقابل 37% نسبة الحضَر فيها. ولعلّ تداعيات الزلزال الأخير على المحافظة، تظهر من خلال الوقوف على نتائج عملية التقييم التي أجرتْها «الهيئة التخطيط الإقليمي» بالتعاون مع الوحدات الإدارية، وخلُصت إلى أن نسبة جودة البُنى التحتية والخدمات العامة في حماة تُقدَّر بحوالى 47%. وكمثال على ما تقدّم، فإن عدد الأسرة الصحّية لا يتجاوز 1985 سريراً مُوزّعة على 51 مستشفى عامّاً وخاصّاً، ما يعني أن حماة وبحسب المؤشّرات ما قبل الحرب عند وقوع الأخيرة. فمن المتوقّع، مثلاً، أن تتراجع مساهمة المحافظة من الناتج المحلّي الإجمالي جرّاء تبعات الزلزال على المدى القريب، وربّما على المدى المتوسّط أيضاً في ما لو فشلت السياسات الحكومية في إعادة تنشيط الاقتصاد ودعْمه لتجاوُز تداعيات الكارثة، وتحديداً في القطاع الزراعي الذي كان يشكّل ما نسبته 33,13% من إجمالي الناتج المحلّي الإجمالي عام 2010. والجدير ذكره، هنا، أن حماة زراعية بامتياز، وهي الأولى في نسبة مساهمة ناتجها المحلّي الزراعي من إجمالي الناتج المحلّي للقطاع الزراعي على المستوى الوطني، حيث بلغت هذه النسبة 16,88% بفارق كبير عن مُنافستها محافظة الحسكة، التي لم تتجاوز مساهمتها الزراعية 10,62%. وللعلم، فإن مساهمة حماة في إجمالي الناتج المحلّي الوطني قُدّرت رسمياً عام 2019 بحوالى 8,78%، بزيادة طفيفة عن مساهمتها في عام 2010، والبالغة آنذاك حوالى 8,52%. أمّا في المرتبة الثانية لتركيبة الناتج المحلّي الإجمالي للمحافظة، فيأتي قطاع الخدمات بنسبة مساهمة 19,08%، ثمّ التجارة ثالثةً بنسبة مساهمة قدْرها 14,53%.

> تجد لجان الكشف الإنشائي صعوبةً في إقناع الناس بضرورة هدْم البيوت المتضرّرة جزئياً

وحتى يتمّ إعلان التقديرات الرسمية للخسائر الاقتصادية الناجمة عن الزلزال على مستوى المحافظات الأربع، فإن عين سكّان حماة ستبقى على الإجراءات المنتظرة للحكومة، والتي يُفرضها إعلان المناطق التي ضربها الزلزال «مناطق منكوبة»، وتتصدّر تلك الإجراءات، معالجةُ مشكلة السكن للأسر التي انجزتْها الهيئة المذكورة نفسها عام 2013، ويُعتقد أنها توسّعت أكثر خلال الأعوام التالية.

في انتظار الفعل

ما يُتخوَّف منه - وهو محتمَل بالفعل - أن تصبح المؤشّرات الاقتصادية والاجتماعية للمحافظة قبل الزلزال، مشابهة لتلك السائدة قبل الحرب، ليس من حيث جودتها ومستوى الرضى عنها؛ إذ ثمّة فارق كبير فيها صنعتْه سنوات الأزمة لا يمكن تجاهُله، وإنّما لجهة التغيّرات التي سوف تشهدها، كما حدث مع مؤشّرات ما قبل الحرب عند وقوع الأخيرة. فمن المتوقّع، مثلاً، أن تتراجع مساهمة المحافظة من الناتج المحلّي الإجمالي جرّاء تبعات الزلزال على المدى القريب، وربّما على المدى المتوسّط أيضاً في ما لو فشلت السياسات الحكومية في إعادة تنشيط الاقتصاد ودعْمه لتجاوُز تداعيات الكارثة، وتحديداً في القطاع الزراعي الذي كان يشكّل ما نسبته 33,13% من إجمالي الناتج المحلّي الإجمالي عام 2010. والجدير ذكره، هنا، أن حماة زراعية بامتياز، وهي الأولى في نسبة مساهمة ناتجها المحلّي الزراعي من إجمالي الناتج المحلّي للقطاع الزراعي على المستوى الوطني، حيث بلغت هذه النسبة 16,88% بفارق كبير عن مُنافستها محافظة الحسكة، التي لم تتجاوز مساهمتها الزراعية 10,62%. وللعلم، فإن مساهمة حماة في إجمالي الناتج المحلّي الوطني قُدّرت رسمياً عام 2019 بحوالى 8,78%، بزيادة طفيفة عن مساهمتها في عام 2010، والبالغة آنذاك حوالى 8,52%. أمّا في المرتبة الثانية لتركيبة الناتج المحلّي الإجمالي للمحافظة، فيأتي قطاع الخدمات بنسبة مساهمة 19,08%، ثمّ التجارة ثالثةً بنسبة مساهمة قدْرها 14,53%.

وحتى يتمّ إعلان التقديرات الرسمية للخسائر الاقتصادية الناجمة عن الزلزال على مستوى المحافظات الأربع، فإن عين سكّان حماة ستبقى على الإجراءات المنتظرة للحكومة، والتي يُفرضها إعلان المناطق التي ضربها الزلزال «مناطق منكوبة»، وتتصدّر تلك الإجراءات، معالجةُ مشكلة السكن للأسر التي انجزتْها الهيئة المذكورة نفسها عام 2013، ويُعتقد أنها توسّعت أكثر خلال الأعوام التالية.

في انتظار الفعل

ما يُتخوَّف منه - وهو محتمَل بالفعل - أن تصبح المؤشّرات الاقتصادية والاجتماعية للمحافظة

التبرّعات مادّةً للتنابز

تركيا رهينة «الهزّات» السياسية

محمد نور الدين

أفرز زلزال السادس من شباط، مجموعة هائلة من التحدّيات، التي ستتطلّب مواجهتها الكثير من التضامن الاجتماعي وكلفة اقتصادية كبرى، وتعالياً على الانقسامات، واعترافاً أيضاً بالمسؤوليات وتجرّؤاً على تحمُّلها. لكن هذا لا يبدو هو الحال في تركيا، حيث تحوّلت حملة التبرّعات التي أطلقت مساء الأربعاء تحت شعار «تركيا قلب واحد»، من فرصة لإبداء ذلك التضامن والتراحُم، إلى عنوان خلاف جديد، يُضاف إلى عناوين أخرى تصدّرت المشهد منذ الكارثة التي ضربت قهرمان مراش وتسع محافظات أخرى. الحملة التي حصدت تبرّعات بقيمة 114 مليار ليرة تركية، أي ما يوازي ستّة مليارات دولار تقريباً، سرعان ما قابلتْها المعارضة بانتقادات لاذعة، بدعوى أن مجموع المبالغ التي تبرّعت بها بنوك أو مؤسّسات تابعة للدولة يتخطّى الثمانين مليار ليرة، أي ما يعادل ثُلُثَي المبلغ الإجمالي. وفي السياق، عنونت صحيفة «جمهورييت»، أمس: «يهبون مال الناس للناس»، ملمّحة إلى أن الأموال المُسداة من المصارف الحكومية هي أصلاً أموال الناس وتُستخدم من أجل الصرف على الاحتياجات والمشاريع العامّة. وتُضاف إلى ما تقدّم، إشكاليّات طُرحت حول مصير تلك الأموال، وما إذا كان سيتمّ تقييدها في السجلّات بمعزل عن ما تبقّى في المصارف. ومن هنا، طالب رئيس «حزب المستقبل»، أحمد داوود أوغلو، بتسجيل كلّ قرش من التبرّعات لصالح «هيئة إدارة الكوارث والطوارئ» و«الهلال الأحمر التركي»، في صندوق خاص، يُعرف لاحقاً أين وكيف تمّ صرْفها، مقترحاً أن «تتشكّل لجنة من البرلمان التركي، تقوم هي بمراقبة وتعقّب مسار ووُجهة إنفاق الأموال». لافتاً إلى أن «الموظّفين الرسميين لا يمكن أن يتبرّعوا إلّا من رواتبهم... تصرُّف حكّام المصرف المركزي هو نوع من فساد السمعة»، فيما شدّد رئيس «حزب الديموقراطية والتقدّم»، علي باباجان، على «ضرورة إعطاء التبرّعات لمستحقّيها من أفراد ومؤسّسات، وبصورة شفّافة وعادلة». من جهته، أوضح الخبير الاقتصادي، حاقان قاران، أن «المصرف المركزي لا يمكنه، في المبدأ، القيام بالتبرّع، كما أن المال الذي يتمّ التبرّع به للهلال الأحمر وإدارة الكوارث هو مال يَدخل الخزينة أوّلاً»، في حين أشار نائب المدير العام السابق لبنك الزراعة، شينول بابجتشو، إلى أن «أموال المصرف المركزي والبنوك الرسمية الأخرى هي أموال عامّة، أي أن الدولة تأخذ من جَيب وتعطي لجيب آخر». وفي الاتّجاه نفسه، رأى البروفسور دوران بلبل أن «ما جرى هو هِبات من الشعب إلى الشعب»، معتبراً أنه «ضمن النظام الحالي، لا يمكن مراقبة كيفية صرْف الأموال ومتابعة مسارها، ولذا يجب تأسيس صندوق خاص بها». وبيّن بلبل أنه «لو قُسّمنا مجموع الأموال التي تمّ التبرّع بها من المؤسّسات الرسمية على عدد السكّان، يتبيّن أن كلّ مواطن دفع من جيبه عبْر هذه المؤسّسات 1354 ليرة (72 دولاراً)»، مضيفاً أن «ميزانية إدارة الكوارث قد تمّ تخفيضها قبل الزلزال بنسبة 33% (8 مليارات ليرة)، والمال الذي انتُقصتْه الدولة من الهيئة الخاصة بالزلازل تُعيده الآن إليها، هذا كلّ ما يحصل». وحذّر حاقان قاره، وهو كبير الاقتصاديين في المصرف المركزي التركي، بدوره، من أن «تبرّعات المركزي تعني أن أرباح المصرف في الموسم المقبل ستتراجع، ونسبة التضخّم ستزيد، خصوصاً أن الإنفاق سيزيد هذه السنة بسبب الزلزال»، موضحاً أن «ما قدّمه المركزي لا يُعتبر تبرّعاً، بل إنفاق من خزينته».

وانتقد كريم روتا، رئيس السياسة الاقتصادية لـ«حزب المستقبل»، من جانبه، طريقة جمْع التبرّعات، معتبراً أنه «كان من الأجدى أن تُعلن الحكومة كلفة إعادة الإعمار، ومن ثمّ تُطلب من الناس التبرّع»، مضيفاً أن «التبرّع من مؤسّسات الدولة ليس تبرّعاً»، فيما نبّه الاقتصادي أوغوز دميرير إلى أن «المشكلة الرئيسة هنا هي أن الدولة يجب أن تقوم بواجباتها، لا أن تتبرّع عبر البنوك الرسمية». وفي الإطار نفسه، رأى إبراهيم تشاناقجي، رئيس السياسة المالية في «حزب الديموقراطية والتقدم»، أنه «لا معنى لتبرّع المصرف المركزي وإعادة إرسال الأموال المتبرَّع بها إلى الخزينة من جديد؛ فهو إمّا أن يحسمها من قيمة الأرباح وهذا لم يحصل، أو أن يطبع أوراقاً نقدية جديدة وهذا سيزيد من التضخّم، فضلاً عن أنه لا يمكن طبْع نقود مجّانية للتبرّع إلى جهةٍ معيّنة». ووصفت ألف تشاكير، في صحيفة «قرار»، ما جرى بأنه «استعراض للأرباح وإلى الدولة، والدولة ليست شركة إعلانية بل مؤسّسة تدير البلاد»، مشيرةً إلى أن «الحكومة التي تم تُسعف المتكوبين في الوقت المناسب في الأيام الأولى للزلزال، وتركت اللناس تحت الأنقاض، تُحاول عبر حملة التبرّعات إظهار مدى سخائها»، متسائلةً: «أين كانت الدولة عندما كان الناس تحت الأنقاض؟».

وتهكّم يلماز أوزديل من جهته، في صحيفة «سوزجي»، على تبرّعات «المركزي»، راوياً حكاية ساعة يد أُهديت عام 1959 من بنك الزراعة إلى أمين الخزانة، ضياء مؤذن أوغلو، الذي أصرّ على أن تبقى الساعة في دائرة الخزانة على رغم أنها ملكه الشخصي، مُقارناً ذلك بحادثة حصول زوجة رجب طيب إردوغان، عندما كان الأخير رئيساً للوزراء، على هدية من أحد المحالّ في موسكو، أجاب إردوغان الصحافيين بخصوصها: «أنتم قليلو الأدب وتَنقصكم اللياقات. لقد كتبتم أن سعره 30 ألف دولار، بينما هو عشرة آلاف دولار فقط»، قبل أن يأمر بوضع الشال كاحد مقتنيات رئاسة الوزراء تحت رقم واحد، أي أن يُجعل «مُلكاً للأمّة»، علماً أن «أحداً لا يدري أين هو الآن». وعلّق أوزديل على ما تقدّم بالتساؤل: «كيف يمكن لمؤسّسات مثل المصرف المركزي والبنوك الأخرى أن تتبرّع بالمال كما لو أنه من جَيبها وتتظاهر بأنها فاعلة خير»، مضيفاً: «ليست تركيا عبارة عن صورتَين»، في إشارة استهزاء بشعار «تركيا قلب واحد». وفي سياق متّصل، انتقد الكاتب طه أقيول، في «قرار»، منْع الكثير من الفنّانين ورجال السياسة وحتى المنكوبين من الظهور في برنامج التبرّعات، ولا سيما المغني خلوق لبفينت، صاحب مؤسّسة «أحباب»، مُديناً ضغوط محطّة «سي إن إن تورك» على الإعلامي الناجح جيم سايمان، الذي كان يعمل في المحطّة منذ إنشائها، فقط لأنه كتب تغريدة تنتقد أداء الحكومة، فاضطرّ أمس إلى الاستقالة، واصفاً تلك الممارسات بـ«الإقصائية التي تلغي شعار 'تركيا قلب واحد'».

> تحوّلت حملة التبرّعات التي أُطلقت مساء الأربعاء تحت شعار «تركيا قلب واحد» إلى عنوان خلاف جديد

على خطّ موازٍ، وبينما رفض نائب رئيس الجمهورية، فؤاد أوكتاي، مسارعة رئيس بلدية أنقرة المعارض، منصور يواش، إلى إعادة إعمار وترميم مطار هاتاي، قائلاً لـه: «مَن تكون أنت لتقوم بهذا العمل الذي لم تقُم به الدولة؟»، شنّ وزير الثقافة السابق، فكري صاغلار، هجوماً لاذعاً على إردوغان، معتبراً، في مقالة في صحيفة «بركون»، أن «تركيا لم تتعلّم بعدُ الدرس الذي يقول إننا بحاجة إلى إدارة مستنيرة إلى العلم، وليس كما هو اليوم إلى إدارة من تحالف طوائف». ورأى صاغلار أن «السلطة ليست لديها نوايا حسنة، وتحاول التسرّع على شيء. وإلّا لماذا بدأت تزيل الأنقاض من دون البدء بتحقيقات لمعرفة أسباب سقوط الأبنية؟ وإلى أين ستذهب بالردم؟ وما هي التأثيرات التي ستُحدثها المكبّات الجديدة على البيئة والناس»، مضيفاً أن «في تركيا 330 ألف مقاول، بينما في ألمانيا 3500 وفي كلّ أوروبا 25 ألفاً. نحن الأخيرون في كلّ شيء، لكن الأوائل في عدد المقاولين»، متابعاً أن «الحكومة سارعت إلى تهديم المستشفيات والأبنية العامّة الرسمية، فيما حوّلت ما تبقّى إلى مستودعات للجثث بدلاً من أمكنة لمداواة الجرحى». واعتبر أنه «لا نيّة لدى حزب العدالة والتنمية لإيجاد حلول جذرية لمشكلاتنا، فيما كلّ همّ إردوغان ليس معالجة آثار الزلزال، بل كيفية إيجاد مخارج دستورية لبقى في السلطة، ومن ذلك تأجيل الانتخابات».

أموال المصرف المركزي والبنوك الرسمية الأخرى هي أموال عامة، أي أن الدولة تأخذ من جيب وتعطي لجيب آخر (أ ف ب)

عودة إلى ما تحت الصفر: عندما يستحيل النزوح «لعنة»

لمى علي

الضربة الثانية التي تلقّاها كثيرٌ من السوريين، باضطرارهم إلى تَرْك منازلهم جرّاء كارثة الزلزال، لم تكن أقلّ قسوة من تلك التي واجهتْهم قبل سنوات، عندما اضطرّوا إلى مغادرة منازلهم عنوةً بفعل الحرب. أولئك الذين لم يختاروا طريقاً لهم خارج حدود بلدهم، وكانوا بدأوا التأسيس لحياة جديدة لمُحاولين استعادة ما خسروه من ممتلكات وذكريات، أتت الكارثة لتُعيد نكْء جراحهم، وتصييهم بلعنة النزوح من جديد، مُرجعةً إيّاهم إلى «ما تحت الصفر». نسر حيدر (43 عاماً) غادر مع زوجته وأولاده مدينة داريا في ريف دمشق عام 2013، بعد تعرُّضه للكثير من المضايقات من قِبَل الجماعات المسلّحة التي سيطرت على المنطقة آنذاك، تاركاً خلْفه منزلاً وأراضي و«حياة مرفّهة وأجمل الأيّام» كما يقول، مختاراً مدينة اللاذقية ليستقرّ فيها ويؤسّس عملاً في مهنته (معلّم موبيليا) التي كانت أغلى ما يملك بالنسبة إليه خارج مدينته، بحسب وصفه. وعلى رغم الصعوبات التي غالَبها في «التأسيس» هناك، استطاع الوصول إلى نصف ما كان عليه قبل النزوح الأوّل. ليأتي النزوح الثاني ويعيده إلى «ما قبل نقطة البداية». يقول نسر لـ«الأخبار»: «كنتُ أتوقّع أنّني لن أخسر أكثر ممّا خسرتُه عندما قرّرتُ مغادرة مدينتي وتَرْك رزقي، ومع ذلك لم أفقد الأمل في العودة أو تحقيق الأفضل، أمّا اليوم فالخسارة أكبر، خسرتُ كلّ ما أملك؛ منزلي الجديد وكلّ ما فيه، والحمد لله أنّنا ما زلْنا على قيد الحياة».

> تجد لجان الكشف الإنشائي صعوبةً في إقناع الناس بضرورة هدْم البيوت المتضرّرة جزئياً

لافتاً إلى شعور القهر الذي ينتاب مَن يبيت في العراء مع عائلته، وهو شعورٌ جرّبه مرّتَين: الأولى في اليوم الذي غادر فيه داريا، والثانية يوم الكارثة المشؤوم قبل أن يلتجئ إلى منزله في الحرب. ومن هنا، تَجد لجان الكشف الإنشائي صعوبةً في إقناع الناس بضرورة هدْم البيوت المتضرّرة جزئياً، وفق ما يؤكّد لـ«الأخبار» المهندس سمير أحمد من لجنة مدينة جبلة، قائلاً: «الاستجابة من قِبَل الناس ضعيفة، وهناك صعوبة في تقبُّلهم قرار الإخلاء سواء لتنفيذ الهدم أو إعادة التدعيم، وقد نضطرّ للجوء إلى مدير المنطقة لمساعدتنا في تنفيذ هذا الجانب»، مضيفاً أن «خوف الناس وحالتهم النفسية الصعبة أدّيا إلى تشكيل ضغط كبير على اللجان، خاصة بسبب التهافت غير المنظّم الذي يؤدّي إلى الكشف على أبنية تمّ الكشف عليها سابقاً من قِبَل مهندسين آخرين».

مضيفةً: «كلّ تلك السنوات ونحن نعيش بالحدّ الأدنى، إلى أن حلّت الكارثة. نجونا أيضاً وخسرنا ثروة عفش». وتلفت داده إلى أن قسرية الخروج والمصير المجهول وانتظار المساعدات هي القواسم المشتركة بين نزوحَيها الأول والثاني، إلّا أنها تعتقد أن الوضع الحالي لا يحمل أيّ بصيص أمل في العودة إلى ما كانوا عليه، وخاصة في ظلّ وجود آلاف العائلات التي تعاني مثل عائلتها.

وإذا لم يكن صعباً اقتناع مَن هوى منزله أمام عينيه بأنه لم يَعُد له خيارٌ إلّا النزوح، فإن مَن يرى بيته لا يزال «واقفاً على قدمَيه» ولو مهلهلاً، سيحاول قدرَ الإمكان التمسّك به، مع حياة جديدة يَنقصها كلّ شيء»، وخاصة في حال سَبق له أن ضَيّع

فلسطين

«دولة المستوطِنين» تثبّت أركانها... الفاشـية لا ترتدع: هدفنا ضمّ الضفة

تخطو حكومة بنيامين نتنياهو الفاشية خطوات واسعة ومتسارعة نحو ضمّ الضفة الغربية المحتلّة، عبر شرعنة 9 بؤر استيطانية، والمصادقة على بناء آلاف الوحدات الأخرى. مُعطيةً بذلك الضوء الأخضر للسيطرة عنوةً على أراضي الفلسطينيين، وتصعيد الإرهاب المنظّم ضدّهم. في ما يستهدف بالنتيجة تكريس أمر واقع يُصعب تجاوزه مستقبلاً. وإذ لا يزال موقف «المجتمع الدولي» خجولاً حيال التغوّل الإسرائيلي، على رغم المواقف الرافضة والمندّدة والجلسة المنتظرة لمجلس الأمن حول هذه القضية، فإن حكومة نتنياهو تبدو وكأنها لا تُلقي بالاً لكلّ تلك الاعتراضات، ماضيةً في جملة إجراءات وقرارات تصبّ جميعها في صالح المشروع الإحلالي. ومن بينها مثلاً إلغاء قانون «فكّ الارتباط»، والذي يعني إمكانية العودة إلى مستوطنات جرى إخلاؤها سابقاً. وياتي هذا التوحّش الاستيطاني في وقت يتعاظم فيه الانقسام الداخلي في دولة الاحتلال، وتتكاثر أدواته الفذرة وغير السويّة، من دون أن يتّضح إلى الآن ما سيفضي إليه في نهاية المطاف، وإنْ كانت كلّ السيناريوات «السوداوية» واردة

رام الله ـ **أحمد العبد**

احتلال الضفة الغربية عام 1967، والذي تسارعت وتيرة تعزيزه تحت جنْح «مفاوضات السلام» و«اتّفاق أوسلو». ويتصرّف المستوطنون في الضفة كعصابة متشعّبة ومنظّمة، فيما باتوا مسنودين الآن بجمعيات ونوّاب في «الكنيست» ووزراء في الحكومة، عملوا على إحداث نقلة نوعية في ذلك المشروع، ستترجَم قريباً على الأرض، بعدما نجح وزير «الأمن القومي»، إيتمار بن غفير، في دفْع المجلس الوزاري الإسرائيلي المصغّر (الكابينيت) إلى تحويل 9 بؤر استيطانية عشوائية إلى مستوطنات قانونية، والمصادقة على مخطّطات لبناء ما يقرب من 10 آلاف وحدة إضافية. وبعدما امتنعت حكومات الاحتلال السابقة عن تشريع البؤر العشوائية نظراً إلى الموقف الدولي الرافض لهكذا خطوة، فإن حكومة بنيامين نتنياهو تجرّات على خطوتها الأولى في هذا الطريق، والتي ستتبعها خطوات أخرى، ليصل في النهاية عدد البؤر التي سيتمّ تحويلها إلى مستوطنات إلى قرابة 80.

ويشكّل قرار إقامة 9 مستوطنات جديدة معترَف بها، وتتلقّى تمويلاً رسمياً، وتكون قابلة للتوسيع على حساب أراضي الفلسطينيين، بداية مشروع الضمّ الفعلي للضفة، خاصة أن هذه العملية ستُرافقها السيطرة على آلاف الدونمات لتوفير البنية التحتية، وشقّ الشوارع. وبحسب تقديرات منظّمة «السلام الآن» الإسرائيلية، فإن ذلك القرار يعني المصادقة على ما يقرب من 335 وحدة سكنية موزّعة على أكثر من 1100 دونم، بما فيها حوالى 420 دونماً من الأراضي الفلسطينية الخاصة. ولعلّ ما يعزّز خطورة الخطّة الإسرائيلية، هو أن البؤر الاستيطانية تنشأ دائماً بالقوّة، وبالتالي فإن شرعنتها ستؤدّي إلى تفاقم هذه الظاهرة، مع ما يعنيه هذا من مصادرة لأراضي الفلسطينيين أو محاصرة لها بالبؤر العشوائية وحرمان لأصحابها من الوصول إليها، وأيضاً تصاعُد لإرهاب المستوطنين ضدّ الفلسطينيين. ومن هنا، نبّهت «السلام الآن» إلى أن «الهدف من إقامة مستوطنات أو بؤر استيطانية جديدة هو إرساء الحقائق على الأرض، والسيطرة على الأراضي الفلسطينية من أجل منْع إمكانية قيام دولة فلسطينية في المستقبل»، موضحةً أن «الغالبية العظمى من البؤر تقع في عمْق الضفة، وتضمّ مساحات كبيرة من الأراضي في منطقة ستكون، في أيّ اتّفاق مستقبلي، جزءاً من الدولة الفلسطينية».

> تُرافق قانونَ تشريع البؤر الاستيطانية جملةُ خطوات تصبّ جميعها في خانة المشروع الإحلالي

وتُرافق قانونَ تشريع البؤر الاستيطانية جملةُ خطوات تصبّ جميعها في خانة المشروع الإحلالي، ومن بينها مصادقة لجنة وزارية حكومية لشؤون التشريع، على مشروع لإلغاء «قانون فكّ الارتباط» لعام 2005، والذي تمّ بموجبه الانسحاب من مستوطنات في الضفة وقطاع غزة، وهو ما يعني العودة إلى عدد منها (لا يقلّ عن 4)، علماً أن هذا الاقتراح بات على أبواب «الكنيست»، وإذا ما جرت المصادقة عليه كما هو متوقّع، فإنه سيصبح نافذاً مباشرة. وتشير التقديرات الفلسطينية إلى أن ثمّة في الضفة 176 مستوطَنة، وأكثر من 180 بؤرة عشوائية، ونحو 50 بؤرة رعوية تنتمي إلى أسلوب جديد من الاستيطان بدأ يتنامى في السنوات الأخيرة، ويتمثّل في قيام مستوطِنين برعي الماشية في أيّ أرض فلسطينية لأيام عدّة، ليبدأ من ثمّ وضْع اليد عليها تحت حماية الجيش. وسيشكّل تشريع تلك البؤر قوّة دافعة كبرى للمشروع الاستيطاني، بالنظر إلى أنه يعني ولادة 180 مستوطنة جديدة، أي أكثر من عدد المستوطنات المقامة منذ احتلال الضفة، فضلاً عن تخصيص موازنات مالية كبيرة لصالحها وتوفير الخدمات الأساسية لها، والأهمّ من ذلك تقوية عصابات المستوطنين، وعلى رأسها «تدفيع الثمن» التي تتّخذ من عدد من البؤر مقرّاً لها، وبالتالي انفتاح شهيّة هؤلاء على ابتلاع المزيد من أراضي الفلسطينيين، وتحفّزهم للقيام بالمزيد من أعمال الإرهاب. وما يعزّز حظوظ السيناريو المتقدّم، هو سعي بن غفير إلى تسهيل منْح المستوطنين رُخصاً قانونية لحمل السلاح، الذي سيكون بالضرورة مُوجّهاً نحو الفلسطينيين، فضلاً عن اشتغاله لتعزيز قوّتهم السياسية، وتثبيت سيطرتهم على مقاليد الحُكم مُمثّلين في أحزاب «الصهيونية الدينية».

وفي الوقت الذي استجلب فيه قرار تشريع البؤر الاستيطانية رفضاً دولياً، وأثار مخاوف من أن يؤدّي إلى تفجير الأوضاع، ودفع إلى طرح مشروع مناهض له أمام مجلس الأمن الدولي سيُجري بحثه خلال الأيام المقبلة، فإن هذا الرفض لا يُلقي، على ما يبدو، اهتماماً لدى بنيامين نتنياهو وحكومته، التي تعمل على مسارات مختلفة من أجل طمس القضية الفلسطينية. فإلى جانب تسريع عمليات الإحلال في الضفة، تسعى حكومة الفاشيين إلى تضييق الخناق على فلسطينيّي الداخل المحتلّ والقدس، عبر إصدارها قانون سحْب الإقامة أو الهويّة من الفلسطينيّين الذين يقومون بأيّ أعمال فدائية ويُجري اعتقالهم، وتتلقّى عائلاتهم مقابلاً مالياً من السلطة الفلسطينية، وهو ما سيؤثّر على مئات الفلسطينيين في القدس الشرقية والعشرات داخل «الخطّ الأخضر». كذلك، يخوض قادة «الصهيونية الدينية»، الآن، بقيادة بتسلئيل سموتريتش، معركة تفكيك «الإدارة المدنية» وهو التوجّه الذي تُعارضه الأوساط الأمنية الإسرائيلية.

وتأسّست الإدارة المذكورة بقرار من «الكابينت» عام 1981، بعد أن كانت الضفة الغربية منذ احتلالها عام 1967 تخضع لإدارة عسكرية بحتة. ويقود «المدنية» ضبّاط عسكريون وعناصر من أجهزة أمنية مختلفة، وهي مَن تتولّى مسؤولية إدارة شؤون المستوطنين في الضفة، وهو ما لم يُعد يروق المستوطنين. وبحسب قراءة لـ«المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية» (مدار)، فإن برنامج سموتريتش الانتخابي تضمّن بشكل أساسي إنهاء هذه الإدارة، حيث دأب على التعهّد بـ«(أنّنا) سنقدّم تشريعات لإلغاء الإدارة المدنية في يهودا والسامرة، ونُقل صلاحياتها الكاملة إلى الوزارات الحكومية في إسرائيل. يتعلّق الأمر بتصحيح الظلم، سواءً في جوانب حقوق المستوطنين أو الخدمة الحكومية التي من المفترض أن تُوفّرها لهم الدولة. وفي الجانب الاستراتيجي، إقامة وتأميم السيطرة الإسرائيلية على الأرض، وليس من خلال حكومة عسكرية مؤقّتة». ويعني ما تقدّم، في حال تحقّقه، خطوة كبرى إضافية على طريق ضمّ الضفة، والتعامل مع جميع المستوطنات هناك كما يجري التعامل مع أيّ «مدينة» في دولة الاحتلال، أي أنها ستكون من مسؤولية الحكومة ووزاراتها، وليس من مسؤولية إدارة مدنية وعسكرية مؤقّتة.

يشكّل قرار إقامة 9 مستوطنات جديدة معترَف بها بداية مشروع الضمّ الفعلي للضفة (أ ف ب)

> الانقسام الحادّ سياسياً بات يبيح أيّ وسيلة، مهما كانت قذرة وغير سوية، من أجل نَيل مكاسب ودفْع تهديدات

تجريد القضاء من السلطة المطلقة، وإتاحة المجال أمام السلطة التنفيذية للتأثير فيه أو مُوازنة عمله من دون أن يكون تابعاً مباشرة لها، وهو ما يقرّ به إسرائيل، من وُجهة نظر البعض، من الحال القائم في «ديموقراطيات» وازنة. لكن هل سيؤدّي ذلك إلى هروب الرساميل والاستثمارات إلى الخارج، أو ملاحقة العسكريين والساسة الإسرائيليين في المحاكم الدولية، أو غيرهما من تبعات لا تفتأ المعارضة تحذّر منها؟ الحقيقة أن هذا السؤال مغلوط بشكل أو بآخر، فيما السؤال الرئيس، الذي يمكن ترتيب إجابات عليه، يتعلّق بعمق الانقسام، سواء السياسي أو الاجتماعي أو الطبقي أو العرقي، وحدوده وملآته، في ظلّ ميل جماعي إلى تقديم «المصلحة الخاصة» على تلك العائمة. في محاولة الإجابة، يمكن رصد جملة مؤشّرات أبرزها التالية:

1- الانقسام الحادّ سياسياً بات يبيح أيّ وسيلة، مهما كانت قذرة وغير سوية، ليس فقط من أجل نَيل مكاسب ودفْع تهديدات، بل أيضاً من أجل الإضرار بالآخر اليهودي.

2- الانقسام الاجتماعي لا يفتأ يتعزّز بين يهودي متديّن يريد فرْض إرادته على الآخرين، وآخر يريد العيش خارج هذه الإرادة، وهو ما يُترجَم بالفصل بين الجماعتَين، بما يشمل الثقافة وأسلوب الحياة والموقف من التراث والملبس والمآكل والنظرة إلى المرأة والأسرة وحقوق الإنسان وحرية التعبير، وصولاً حتى إلى المواطنة والدولة والهوية. وفي وجه من وجوه هذا الشرخ، تبرز عودة الانقسام بين «السفارد» و«الأشكناز»، والذي كان زعم كثيرون أنه انتهى.

3- طغيان الإيديولوجيا على أيّ حسابات أخرى، والسعي لإنفاذها مهما كانت التبعات، بعيداً من الموازنة المعهودة بين الجدوى والكلفة.

بناءً على ما تقدّم، يمكن القول إن الصراع الدائر اليوم، والذي تدخل تعبيراته الاحتجاجية أسبوعها السابع، إنّما هو تعبير عن انفصال عميقٍ متعدّد الأوجه، يتمظهر الآن في الخلاف على «الإصلاحات القضائية» علماً أنه سابق لها، وأنها ليست هي المسبّب له، وفي ذلك فارق جوهري يُجدر التنبّه إليه. هذا الانفصال هو الذي يؤدّي إسرائيل، سواء في «مؤسّساتها»، أو حياتها السياسية، أو تركيبها الاجتماعي الذي يضمّ أصلاً بذور تصدّعات، أو مؤسّستيها العسكرية والأمنية، وصولاً إلى اقتصادها الذي بدأت التبعات السلبية تظهر فيه، من خلال تردّي قيمة العملة وهروب الاستثمارات والتحويلات بالمليارات إلى الخارج. هل يؤدّي كلّ ما تقدّم إلى سيناريوات «قاتمة» إسرائيلياً من مثل تلك التي يُحكى عنها راهناً، خصوصاً أن أطراف الصراع يتجاوزون قواعد الاشتباك التي حفظت إلى الآن «سلامة» دولة الاحتلال، بل ومنهم مَن يريد إسقاطها نهائياً؟ التقديرات غير حاسمة، لأن معطياتها غير حاسمة أيضاً ومضلّلة، وإنْ كانت كلّ المآلات ممكنة.

أسبوع سابع من الاحتجاجات على إسرائيل عالقة بانقساماتها

يحيى دبوق

يتواصل، للشهر الثالث على التوالي في أعقاب الانتخابات الأخيرة، انقسام إسرائيل الحادّ على نفسها، وسط تحذيرات من تبعات بالغة السلبية، قد تصل إلى حدّ الاحتراب الداخلي. ويطغى على الديناميات المرتبطة بهذا الانقسام، خطابُ كراهية وإرادة إيذاء بالآخر وتخوين وتحريض، وصولاً إلى الدعوة إلى «إراقة الدماء والقتل»، وإنْ رافق ذلك تهويل ومبالغة وشيطنة. ويتمثّل محور التجاذب الرئيس في ما تُسمّى «الإصلاحات القضائية» التي يريد الائتلاف الحالي إقرارها سريعاً، فيما يرفضها مُعارضو الحكومة ويعدّونها «انقلاباً على الديموقراطية»، وتعميقاً للشروخ الاجتماعية، ودفعاً نحو الحرب الأهلية، وصولاً إلى انهيار اقتصاد إسرائيل، وربّما زوالها. لكن، هل هي كذلك فعلاً؟

الأكيد أن ثمّة تضخيماً في الحديث عنها، في ما يمثّل جزءاً من عدّة الصراع السياسي الذي تُشحذ من أجله جميع الأدوات والأسلحة هذه الأيام. على أن ذلك لا ينفي حقيقة أن أقطاب الائتلاف الحالي يسعون، كلّ وفقاً لإيديولوجيته المتطرّفة، إلى الحدّ من قدرة «المحكمة العليا» والقضاء بشكل عام، على التدخّل في القوانين أو القرارات التي يَدفعون في اتّجاهها، والمُنافية بمجملها لجملة محدّدات مزعومة، من بينها «حرية التعبير وحقوق الإنسان والمساواة». بالنسبة إلى الأحزاب «الحريدية»، فهي تريد تجاوُز القضاء ربطاً بسلة إجراءات تتطلّع إليها، على رأسها منْع التجنيد في الجيش عن «الحريديم»، ومنْحهم عطاءات مالية بلا حدود، والتمييز على أساس ديني بين اليهود أنفسهم. أمّا أحزاب «الصهيونية الدينية»، فهي ترغب في امتلاك الدفّة المطلقة على انتزاع الحقّ الفلسطيني، من دون الاهتمام بضوابط كانت «المحكمة العليا» تضعها في الاعتبار من مِثل صورة إسرائيل في الخارج، وتقديرات المؤسّسة الأمنية لتبعات أيّ اعتداءات. وبالنسبة إلى بنيامين نتنياهو، ثمّة فوائد كثيرة مأمولة، من بينها ضمان ديمومة حُكمه في مواجهة القضاة والمستشارين القانونيين، خصوصاً أن رئيس الحكومة متّهم في قضايا فساد ورشى.

> الانقسام الحادّ سياسياً بات يبيح أيّ وسيلة، مهما كانت قذرة وغير سوية، من أجل نَيل مكاسب ودفْع تهديدات

على أن ثمّة تفاصيل هنا، يَجدر إيرادها لفهم الصورة كاملة، وأبرزها ما يلي:

أوّلاً: تتطلّع القوانين المزمع إقرارها إلى تخفيض الغالبية المطلوبة لتعيين قضاة «المحكمة العليا»، من سبعة من أصل تسعة، إلى خمسة من أصل تسعة، وهو ما شأنه تعزيز قدرة الائتلاف الحاكم على التأثير في التعيينات، من دون الحاجة إلى تعيين القضاة مباشرة، أو التدخّل في القضايا المعروضة عليهم. بتعبير آخر، ثمّة سعي إلى تهشيم القواعد التي يقوم عليها تشكيل

يعتبر الصراع الدائر اليوم في إسرائيل عن انفصال عميق متعدّد الأوجه (أ ف ب)

وفيات

رئيس مجلس النواب
أعضاء مجلس النواب
ينعون بمزيد من الأسى زميلهم
المأسوف عليه
الوزير والنائب السابق مئايل الضاهر
المنتقل إلى رحمة الله تعالى
الثلاثاء الموافق لـ 14 شباط 2023.

إعلانات رسمية

إعلان شطب شركة

صادر عن السجل التجاري في بيروت بموجب محضر الجمعية تاريخ 2022/11/17 تقرر بتاريخ 2023/2/7 حل شركة كوخ 3 ش.م.ل. رئيس مجلس إدارتها مديرها عبدو حكمت قصير وشطب قيدها من السجل التجاري حيث هي مسجلة تحت الرقم 74395 ورقم تسجيلها في وزارة المالية 160834.

فعلى كل ذي مصلحة تقديم اعتراضه وملاحظاته خلال مهلة عشرة أيام من تاريخ آخر نشر.

أمين السجل التجاري
بالتكليف مارلين دميان

إعلان

صادر عن محكمة الأمور المستعجلة في النبطية

غرفة القاضي أحمد مزهر

بدعو قلم هذه المحكمة المستدعى ضده هشام أحمد حلوس من بلدة أنصار والمجهول محل الإقامة الحضور إليه لاستلام أوراق الاستدعاء المقدم من ورثة المرحوم إبراهيم حسين عاصي والمسجل بالرقم 2023/688 بموضوع الترخيص للورثة بفتح المحل الكائن على العقار رقم 2580/أنصار والدخول إليه واستلامه، وعليك اتخاذ محل إقامة ضمن نطاق المحكمة ما لم تكن ممثلاً بمحام حيث يعد مكتبه مقاماً مختاراً لك وإلا جاز إبلاغك الأوراق بواسطة رئيس القلم والتكليف على لوحة الإعلانات في هذه المحكمة ضمن المهلة القانونية من تاريخ النشر.

عن رئيس القلم
الكاتب حسان عياش

إعلان قضائي

صادر عن محكمة جويا المدنية/ عقارية برئاسة القاضي ريشار السمرا
بالدعوى رقم 214 /2021
المقدمة من مها محمود صبراوي
بوجه المدعى عليها صونيا محمد علي طويل -موضوعها شفعة -
تدعو هذه المحكمة السيدة صونيا علي محمد طويل للحضور إليها واستلام أوراق الدعوى خلال مهلة عشرين يوم من تاريخ النشر وإلا اعتبر كل تبليغ لها في قلمها قانوني باستثناء الحكم النهائي.

رئيس القلم /زينب أيوب

استراحة

كلمات متقاطعة 4247

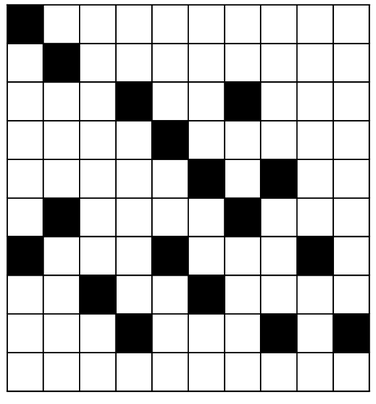

أفقيا

1- ممثل مصري راحل – 2- مدينة يابانية – 3- نحفر البئر – نوتة موسيقية – لباس الميت – 4- شكوك واعتقادات خاطئة – ماركة سيارات – 5- حرف نصب – إله النور عند الفرس – 6- مقلة – بهار هندي – 7- مدينة أثرية في مصر – نهر فرنسي – 8- حاجب – من الطيور – سعل – 9- أوقع الشخص في أمر لا خلاص له منه – ضنّ – 10- ممثل لبناني

عمودياً

1- مدينة سورية – 2- عاصمة اتحاد جزر القمر – أغنية لوديع الصافي – 3- ردّه وقلبه – إرتفع النبات – 4- حرف عطف – للتأفف – عبقرية – 5- مجرى الوادي الضيق – راحة اليد – خصب – 6- مشروب ساخن – إسم موصول – فتك به – 7- ثرى – مدينة مصرية – 8- إحدى جمهوريات روسيا – بواسطته – 9- كسَر الحجارة – مدينة عراقية – 10- صدأ النحاس – مدينة سورية

حلول الشبكة السابقة

أفقيا

1- يوسف الحويك – 2- سفر برلك – قر – 3- رد – رمل – ضفة – 4- مال – كر – 5- شاي – كابول – 6- جد – ربرب – بق – 7- أرخ – أمرد – 8- راموس – يمام – 9- ارتبّ – يم – 10- شارع الحمرا

عمودياً

1- يسرا – جاروش – 2- وفد – شدرا – 3- سر – ما – خمار – 4- فبراير – ورع – 5- أرمل – باستا – 6- ل ل ل – كرم – بل – 7- حك – كابري – 8- ضرب – دميم – 9- يقف – وبّ – أمر – 10- كرة القدم

sudoku 4247

		3		7			9	
8	6			9			7	
				2		8	3	
		1		8				
3	9			6		1	8	
		6			9	2	5	
	4				6	3		
2					1		6	
		8		3	2	4		9

شروط اللعبة

هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أوعمودي.

حل الشبكة 4246

2	7	1	6	8	3	9	5	4
9	5	4	7	2	1	6	8	3
3	6	8	9	5	4	7	1	2
7	2	5	1	6	8	3	4	9
4	8	9	3	7	5	2	6	1
1	3	6	2	4	9	5	7	8
5	1	2	4	3	6	8	9	7
8	9	7	5	1	2	4	3	6
6	4	3	8	9	7	1	2	5

مشاهير 4247

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

المؤسس الحقيقي للإتحاد السوفياتي (1878- 1953) عُرف بحكمته وقوته

8+9+1+2+3 = من المكسرات ■ 5+6+7+8+11 = لباس نسائي ■ 10+9+4 = ياتي بعد

حل الشبكة الماضية: **تيسير الجاسم**

إعداد
نعوم مسعود

البلاد

ملف

برشلونة لتل أبيب: لا أشبهك!

برشلونة - **مصعب بشير**

في سياق دقيق ومتراكب قررت رئيسة بلدية برشلونة السيدة ادا كولاو، اعتماد صيغة خاصة لمقاطعة دولة الأبارتهايد الإسرائيلي في خطوة بَلغت ردودُ الفعل إثرَها أيّما مبلغ.

«قررت أن أعلق مؤقتاً عاقات إبلدية برشلونة| بدولة إسرائيل وؤسساتها الرسمية .ويشمل ذلك اتفاق التوأمة مع بلدية تل أبيب. إلى أن تضع السلطات الإسرائيلية حداً للانتهاكات المنهجة لحقوق الإنسان المقترفة في حق السكان الفلسطينيين، وتنفذ بشكل كامل الالتزامات التي يفرضها عليها القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة».

كان ما سبق مقتطفاً من الرسالة التي أرسلتها ادا كولاو رئيسة بلدية برشلونة إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو، وقد أكدت فيها، وفي المؤتمر الصحافي الذي عقدته في الثامن من الشهر الجاري، أن المدينة وبلديتها تعيان تماماً الفرق بين الدولة الإسرائيلية التي ينطبق عليها تعريف الأبارتهايد، واليهود كأشخاص مرحب بهم مثل غيرهم في تلك المدينة العوالمية التي يربو عدد ساكنيها عن المليون و600 الف نسمة.

ومع ذلك، طالعت الدولة الصهيونية والمنظمات التابعة لها الجميع بردود فعل مفاجئة في تكراريتها، وعدم ملاءمتها للموقف، بل وفي وصول بعضها إلى الافتراء وقلة الأدب بأتم معنى الكلمة. كان الرد الأول من طرف أهم منظمة للوبي الصهيوني في إسبانيا «منظمة العمل والإعلام بشأن الشرق الأوسط» (Acom) التي وصفت القرار بـ«تعهير للمؤسسات الرسمية وجعلها حاضنة لكره اليهود، وتحويل بلدية برشلونة لوكر طائفي معاد للسامية». تلا ذلك بُاقل من ساعتين ردٍ من الناطق باسم وزارة الخارجية الإسرائيلية ليئور خياط، وصف فيه القرار بانه «لا يمثل غالبية السكان، ومعاد للسامية، ولمصالح سكان برشلونة التي تجمعها بإسرائيل قيمٌ مشتركة».

ومنذ ذلك الحين، لم يتوقف أغلب المعلقين في القنوات التلفزيونية والإذاعية الكاتالونية عن مهاجمة القرار، والترويج للرواية الصهيونية. عن ذلك يقول الصحافي والكاتب والمستعرب الكاتالوني مارك المودوفار: «لا غرابة في ذلك، إذ ثمة لوبي صهيوني قوي ومتنفذ في الأوساط السياسية والإعلامية. يمكن القول إن في كاتالونيا نخبة متصهينة تؤثر في أوساط المال والإعلام، أما الشارع فغالبيته متعاطفة مع القضية الفلسطينية وتعلم -بشكل أو بآخر- أن هناك ظلماً تمارسه إسرائيل على الشعب الفلسطيني».

فشل مسار «المقاطعة» يحتّم مسار المقاطعة

أبرم عام 1998 اتفاق توأمة ثلاثي برعاية بلدية برشلونة يشمل غزة وتل أبيب. لكن الاتفاق «لم يخدم إلا تل أبيب فقط، فبلديتها ما برحت تروج لنفسها بانها مثل برشلونة؛ مدينة منفتحة ومتسامحة ومركز للتقانة الحديثة»، بحسب ما صرح به صلاح الجمل، مؤسس جمعية «الجالية الفلسطينية في كاتالونيا». بعد أن أضحى جلياً فشل اتفاق أوسلو، الذي لم يمنح الشعب الفلسطيني أكثر من مقر «المقاطعة» ليستعرض فيه رئيس السلطة حرس شرفه، صار لزاماً إعادة النظر في المواقف كافة، كل من موضعه. فمن داخل فلسطينَ صدر نداء قطاعاتٍ متعددة من الشعب الفلسطيني بمقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها ومعاقبتها في أواخر الانتفاضة الثانية، وفي برشلونة وُلدت فكرة قطع العلاقات مع النظام الاستعماري الصهيوني بُعيد العدوان الإسرائيلي الدامي على قطاع غزة مطلع عام 2009.

وفي عام 2015 تشكل تحالف باسم «وقف التواطؤ مع إسرائيل» (Prou Complicitat amb Israel) يضم 16 منظمة مجتمعية وغير حكومية وهيئات تضامن كاتالونية تتبنى نداء المقاطعة الفلسطيني، أبرزها «جمعية التضامن الأممي الأنوثي (النسوي)» (Suds)، و«اللجنة المقاطعة» (BDS) في كاتالونيا، و«الجمعية الكاتالونية لليهود والفلسطينيين» (Junts) وجمعية الجالية الفلسطينية في كاتالونيا، و«المعهد الدولي للعمل اللاعنفي» (Novact). وقد عمل التحالف بدأب -ولا يزال- لإقناع السلطات في إقليم كاتالونيا والمجلس البلدي لمدينة برشلونة على تبني نداء مقاطعة دولة الاستعمار الإسرائيلي. ومع وصول حركة «Catalunya en Comú» اليسارية المعروفة باسم «كومونس» إلى رئاسة البلدية، أصبحت هناك آذانٌ صاغية لنداء المقاطعة داخل بلدية برشلونة.

في معرض حديثه إلى «الأخبار» عن الفعل وردود الفعل، قال لوران كوهن مدينا، اليهودي المعادي للصهيونية والرئيس المشارك لجمعية اليهود والفلسطينيين في كاتالونيا: «الأمر نابعٌ من قراءتنا للمشهد الفلسطيني، فنحن لسنا أمام صراع، بل أمام استعمار استيطاني. لذلك نحن مع الفلسطينيين في نضالهم ضد دولة إسرائيل التي لا تمثلنا كيهود، ويهمنا أن نكيل الضربات للنظام الصهيوني. صحيحٌ أن الخطوة رمزية، وأنهم سيستمرون في أعمالهم القذرة، لكن توعية الرأي العام مهمةٌ وتؤلمهم. أما الأقاويل، بأن تل أبيب مدينة متحررة وصديقة لمجتمع الميم عين، وأن رئيس بلديتها وصف الحكومة الإسرائيلية الحالية بـ'الفاشية' وأنه لا يجب معاقبة تل أبيب؛ فهي واهية. ها هو رئيس بلدية تل أبيب طيار حربي سابق، وتل أبيب نفسها أقيمت على أراض مطهرة عرقياً بعد تدمير قرى فلسطينية وأجزاء من مدينة يافا وطرد أهلها. لا تربطنا بإسرائيل وتل أبيب أي قيمة».

حركةٌ متسارعةٌ قبل اشهر من الانتخابات

شهد الربع الأخير من العام الماضي تصاعداً للفعل المدني الرامي لمقاطعة إسرائيل في برشلونة، حيث اجتمع ممثلو وممثلات منظمات تحالف «وقف التواطؤ مع إسرائيل» مع رئيسة البلدية ادا كولاو، ثم تحدث أولئك في جلسة عامة للمجلس البلدي طرحوا فيها حُججهم ومطالبهم التي لم تدعمها سوى حركة «كومونس» التي تترأسها كولاو.

بعد ذلك، في شهر تشرين الثاني الماضي، فتحت البلدية، عبر موقعها الإلكتروني، الباب لجمع التواقيع بغرض الحصول على موافقة شعبية على وقف العلاقات مع تل أبيب وإسرائيل. وتحدد الحد الأدنى للتواقيع بـ 3500 توقيع، وبسقف زمنيّ لا يتجاوز الخمسة أسابيع فقط. يشرح لوران كوهن مدينا كيف تحوّل طلب جمع التواقيع إلى حملة شعبية ضخمة باسم «برشلونة والأبرتهايد، لا» (Barcelona amb l'Apartheid NO)؛ «تلقفنا في تحالف وقف التواطؤ مع إسرائيل طلبَ جمع التواقيع وانزلناه إلى الشارع، ووسعنا نطاقه، وتمكنا من إقناع 112 جهةً مختلفة بالانضمام إلينا، منها أكبر نقابتي عمال في البلاد، واتحادية لجان الأحياء في المدينة واتحاد منظمات التنمية والتعاون الدولي».

هكذا تم جمع أكثر من 4 آلاف توقيع في زمن قياسي، وكان بالإمكان جمع المزيد من التواقيع لو أتيح مزيدٌ من الوقت. وحيث أنه من صلاحية رئيسة البلدية أن تتخذ بمفردها قراراً بإبرام اتفاق توأمة أو فضه من دون الرجوع إلى المجلس، فإن ادا كولاو اتخذت القرار، وأعلنت عنه في مؤتمر صحافي بحضور ممثل جمعية الجالية الفلسطينية في كاتالونيا، وممثل الجمعية الكتالونية لليهود والفلسطينيين، والناطقة باسم حملة «برشلونة والأبارتهايد. لا» وممثلة حركة المقاطعة «BDS» أليس سامسون التي قالت: «إن الإنجاز هو ثمرة جهدٍ قام به قطاعٌ عريض، يمثل المنجمع المدني المنظم في كاتالونيا الذي يناضل ضد العنصرية وضد الاستعمار ومن أجل العدالة الاجتماعية والحقوق الجنسية والجنسانية. جهدٍ من نساء ورجال في كاتالونيا وإسبانيا والعالم، جهدٍ من فلسطينيين ويهود وإسرائيليين معادين للصهيونية. إن استمرار نظام الأبارتهايد الإسرائيلي في جرائمه سببه التواطؤ الدولي وتطبيع العلاقات

«شكرا برشلونة». ملصق باللغة الكتالونية انتشر بعد قرار البلدية تعليق التوأمة مع بلدية تل ابيب

أيوسو -المعروفة بشعبويتها وتأييدها المطلق لإسرائيل حتى أثناء عملياتها العسكرية الكبرى- إلى إسرائيل والتقت بكبار الساسة هناك في زيارةٍ لا تخفى ماربها على أحد.

عن ذلك يقول مارك المودوفار: «تلك تحركاتٌ طفولية، فاليمين يريد أن يناكف ويتخذ خطوات معاكسة لإثبات وجوده وتسخيف اليسار». وعلى الرغم من محاولة الإعلام الإسرائيلي التباهي بما يفعله اليمين في مدريد، إلا أن الحملة الشعواء في الإعلام في إسبانيا ضد ذلك القرار التاريخي دليل على أن إسرائيل تتألم؛ فهي بكلمات المؤرخ إيلان بابيه «ترى نفسها في المرآة الأوروبية»، في غضون ذلك ثمة أنباءٌ غير مؤكدة عن فعل مشابه تشهده الآن مدينة تولوز الفرنسية.

شهد الربع الأخير من العام الماضي تصاعداً للفعل المدني الرامي لمقاطعة إسرائيل في برشلونة

نحو تحرّر الفلسطينيّين: المقاطعة وأخواتها

كريس هاتش (الولايات المتحدة)

خَريستو المر

شيء من فداحة الواقع

ما من قضيّة كالقضيّة الفلسطينيّة، في وطننا العربيّ، يمكنها أن تعلّم الإنسان وتكشف له العالم الذي نحيا فيه. الواقع أنّه ما من حكومة في هذا العالم الأوروبيّ (ما عدا إيرلندا المحتلّ شمالها) والشمال أميركيّ تعمل، أو تريد فعلاً، للفلسطينيّين أن يتحرّروا. فتلك البلاد لا تزال استعماريّة الفكر والنهج والتصرّف، ولا تزال تحاول استغلال مقدّرات بلاد الآخرين بالحرب المباشرة أو بأدوات الكلام الفوقيّ عن حقوق الإنسان كوسيلة جديدة للتدخّل الاستعماريّ، شبيهة بتلك القديمة القائمة على أساطير «التفوّق» الحضاريّ والثقافيّ. ما يثير العجب ليس ما أقوله، بل مدى استفحال الاستعمار الداخليّ الفكريّ الذي يخضع له مثقّفونا الذين لا يرون هذا الواقع، ولا أقصد الذين لا يريدون أن يروا لإبقاء على سبيل دولارات شيوخ التطبيع. فالواقع أنّ جشع الشركات وحكومات بلادها، ستسحق سحقاً أيّ بلد أو شعب غير قادر على إعادة نفسه، والاجتماع على مشروع تحرّر أو دفاع عن بلاده.

«المجتمع الدولي» الأوروبيّ والشمال أميركيّ، أي حكوماته، لا يأبه للشأن الفلسطينيّ ولا للشأن العربيّ، يجب أن نفهم ذلك. معرفة هذه الأرضيّة نفسها هي التي تدفع بالاحتلال الاستعماريّ العنصريّ الصهيونيّ لبذل الجهود الهائلة لإخفاء واقع الاحتلال والتمييز العنصريّ عن الإعلام الغربيّ والعربيّ، ولمحاولة منع أيّ انتقاد لإسرائيل تحت مظلّة معاداة الساميّة. ومعاداة الساميّة وإن كانت صحيحة وموجودة لدى الأوروبيّين والشمال أميركيّين أساساً، فقد جرى توسيعها أخيراً من قبل الصهاينة لتشمل انتقاد إسرائيل، وهو ما تلقّفته بشغف حكومات العار الأوروبيّة والشمال أميركيّة، بينما يلاقي رفضاً قاطعاً من النقابات (جميع نقابات الأساتذة الجامعيّين في كندا، مثلاً) والمنظّمات المختلفة (اتّحادات طلّاب، مثلاً) ومنها منظّمات يهوديّة.

المهم أن نعي مركزيّة هدف التحرّر في العمل الجماعيّ حول القضيّة الفلسطينيّة. ولهذا فبينما تختلف الوسائل حكماً، بين بلد وبلد، وبين الداخل الفلسطينيّ والخارج، فالمهمّ أن نلتقي على الهدف باختلاف الوسائل والعقائد. ولا شكّ أنّ أبرز نقاط الضعف في حركة التحرّر الفلسطينيّة، هي أنّها لم تعد تشكّل حركة تحرّر واحدة، وأنّ اتّفاق أوسلو جعل من السلطة الفلسطينيّة سلطة مأجورة من الاحتلال للعمل من أجل استتباب أمنه. كلّ عذر لعدم التعاون والوحدة هو خيانة للشعب الفلسطينيّ.

المقاطعة وتجربتها

المقاطعة خارج فلسطين وداخلها عمل أساس، نضال فعليّ، بخاصّة في العالم العربيّ الذي تهرول حكوماته اليوم نحو التعاون مع الجلّاد باسم الضحيّة!

إنّ المقاطعة ونقل حقيقة الواقع الفلسطينيّ وجرائم دولة إسرائيل، يشكّلان نضالاً حقيقيّاً. فأنت أحياناً تخاطر بوظيفتك حين تكتب أو تحاضر أو تناصر حرّية الفلسطينيّين وتنتقد إسرائيل، في بلدان الحكومات المعادية لنا، في أوروبا وشمال أميركا؛ الدعاوى لطرد أساتذة مدارس وجامعات من عملهم، ولمعاقبة طلّاب، مع الفلسطينيّين. قد لا يعرف ما هو الحلّ، قد يختلف مع آخرين في تقدير الحلول، ولكن لا يمكنه -إن لم يكن عنصريّاً- أن يقبل هذه الجرائم اليوميّة. هذه هي الأرضيّة الأخلاقيّة الإنسانيّة التي تستند إليها كلّ حركة تحرّر، لأنّها تعرف أنّها تحرّض ضدّ الظلم. معرفة هذه الأرضيّة نفسها هي التي تدفع بالاحتلال الاستعماريّ العنصريّ الصهيونيّ لبذل الجهود الهائلة لإخفاء واقع الاحتلال والتمييز العنصريّ عن الإعلام الغربيّ والعربيّ، ولمحاولة منع أيّ انتقاد لإسرائيل تحت مظلّة معاداة الساميّة. ومعاداة الساميّة وإن كانت صحيحة وموجودة لدى الأوروبيّين والشمال أميركيّين أساساً، فقد جرى توسيعها أخيراً من قبل الصهاينة لتشمل انتقاد إسرائيل، وهو ما تلقّفته بشغف حكومات العار الأوروبيّة والشمال أميركيّة، بينما يلاقي رفضاً قاطعاً من النقابات (جميع نقابات الأساتذة الجامعيّين في كندا، مثلاً) والمنظّمات المختلفة (اتّحادات طلّاب، مثلاً) ومنها منظّمات يهوديّة.

المهم أن نعي مركزيّة هدف التحرّر في العمل الجماعيّ حول القضيّة الفلسطينيّة. ولهذا فبينما تختلف الوسائل حكماً، بين بلد وبلد، وبين الداخل الفلسطينيّ والخارج، فالمهمّ أن نلتقي على الهدف باختلاف الوسائل والعقائد. ولا شكّ أنّ أبرز نقاط الضعف في حركة التحرّر الفلسطينيّة، هي أنّها لم تعد تشكّل حركة تحرّر واحدة، وأنّ اتّفاق أوسلو جعل من السلطة الفلسطينيّة سلطة مأجورة من الاحتلال للعمل من أجل استتباب أمنه. كلّ عذر لعدم التعاون والوحدة هو خيانة للشعب الفلسطينيّ.

المقاطعة وتجربتها

المقاطعة خارج فلسطين وداخلها عمل أساس، نضال فعليّ، بخاصّة في العالم العربيّ الذي تهرول حكوماته اليوم نحو التعاون مع الجلّاد باسم الضحيّة!

إنّ المقاطعة ونقل حقيقة الواقع الفلسطينيّ وجرائم دولة إسرائيل، يشكّلان نضالاً حقيقيّاً. فأنت أحياناً تخاطر بوظيفتك حين تكتب أو تحاضر أو تناصر حرّية الفلسطينيّين وتنتقد إسرائيل، في بلدان الحكومات المعادية لنا، في أوروبا وشمال أميركا؛ الدعاوى لطرد أساتذة مدارس وجامعات من عملهم، ولمعاقبة طلّاب، وتتنكيل، على رغم انتهاجها الدعوة للصراع غير المسلّح تناسباً مع الموقف الكنسيّ التقليديّ.

نحو التحرّر

الصراع في فلسطين ليس معقّداً كما يحلو للنّاس في بلاد الغرب أن يقولوا (أو كما يبدو لهم فعلاً إن كانوا يجهلون معطيات الواقع). إنّ استتباب العدالة والسلام في أرض فلسطين أمر بسيط يقوم على أن ينتهي الاحتلال ومشروع الاستيطان الصهيونيّ، ويحيا النّاس في مساواة وعدالة في قانون يحترم حقّوق المواطنين، مع ما يستتبع ذلك من إحقاق جميع حقّوق الشعب الفلسطينيّ، فتكون دولة تعامل المواطنة والمواطن بمساواة أمام القانون من دون أيّ نوعٍ من أنواع التمييز. لكن، للأسف، يبدو أنّه لا يمكن الوصول إلى هذا الحلّ، على وضوحه وبساطته، إلّا عبر سيل من الدماء، سيل كان من الممكن تجنّبه، لولا أنّ الجشع والعنصريّة استحوذتا على قلوب وعقول ممثّلي النّظام الرأسماليّ الأميركيّ-الأوروبيّ العنصريّ، الذي يسعى لتحقيق مصالحه الاقتصاديّة على جثّتنا، والذي يدعم من دون هوادة النظام الصهيونيّ العنصريّ المدجّج بالسلاح، والذي يسعى هو الآخر لتحقيق مصالح اقتصاديّة بمتابعة سرقة الأرض من أهلها.

للأسف، على سكّان بلادنا أن يدفعوا ثمناً باهظاً للتحرّر، كان يمكن الاستغناء عنه لولا الجشع الذي يتجسّد أنظمة عنصريّة وراسماليّة. لن نتحرّر إلّا حين تكون كلفة الأرباح التي تجنيها هذه الأنظمة من استغلالنا وقتلنا، أعلى بكثير من كلفة إنهاء نظام الفصل العنصريّ. قد يكون لهذه الكلفة أكثر من وجه، فقد يكون لها وجه اقتصاديّ وآخر سياسيّ وآخر عسكريّ. من هنا، يتكامل العمل المقاوم، في جميع أشكاله المقبولة لدى جميع الشعوب، والمعترف به كحقّ عابر للزمن وللحضارات. تلك الأشكال التي يريد سلبنا إياها جميعاً، أولئك الذين يريدون مراكمة الثروات فوق جثّتنا، داخل وخارج فلسطين.

إنّ «الوحش الصاعد من الهاوية» لن يُطرح في «بحيرة النار» بلا مقاومة، المهمّ أن تتنبّه كلّ مقاومة، فلا تتبنّى أساليب «الوحش»، وأن تحافظ على رؤيتها الأولى فلا يظلّلها أيّ حقد لجماعة، فالتركيز على مقاومة الشرّ لا على هويّة الشرّير -ولا حتّى على شخصه إن استطاع الإنسان- يفيدنا ويهمّنا من أجل مستقبلنا جميعاً كبشر على هذه الأرض.

بينما تختلف الوسائل حكماً، بين بلد وبلد، وبين الداخل الفلسطينيّ والخارج، فالمهمّ أن نلتقي على الهدف باختلاف الوسائل والعقائد

تتتابع، ومواجهتها الناجحة تتتابع أيضاً. لقد توسّعت حركة المقاطعة التي أطلقها فلسطينيّو الداخل عبر السنوات، وما الحرب القانونية الإعلاميّة الشعواء التي تُشنّ على حركة المقاطعة، إلّا الدليل القاطع على فاعليّتها، لأنّها بالضبط تكشف الوجه العاري لوحشيّة المحتلّ.

حركة المقاطعة حركةٌ متناسبة مع ما يمكن أن يقوم به أناس يحيون في بلاد بعيدة أو قريبة، يمكنهم أن يدعموا حركة تحرّر وطنيّة، بتوسيع الوعي الشعبي والانخراط في ضرب مصالح الاحتلال، بالضغط على حكوماتهم لدعم التحرّر أو الامتناع عن دعم الاحتلال. النجاح مختلف بحسب البلدان لكنّه يتقدّم بالفعل. المقاطعة والتظاهر هو فعل حقيقيّ، لا يحرّر وحده، ولكنّه يؤمّن أسباب الدعم والبيئة العربيّة والعالميّة الحاضنة التي تحتاجها كلّ حركة تحرّر.

لاهوت التحرير الفلسطيني

في الداخل الفلسطينيّ، ترتفع أصوات عالية للاهوتيّين فلسطينيّين (القسّ الدكتور متري الراهب، القسّ الدكتور نعيم عتيق) يخاطبون مواطنيهم باللغة العربيّة، ويخاطبون المسيحيّين بلغاتهم الأجنبيّة في أوروبا والأميركيّتين، ويدافعون، من منظور مسيحيّ، عن خطّ التحرّر من الاحتلال، ويرسخّون أسس لاهوت تحرّر مسيحيّ فلسطينيّ، يفضح العنصريّة الصهيونيّة ويدعو لمناهضة الاحتلال، ويدحض مواقف المسيحيّين الصهاينة. أمّا الكنائس الفلسطينيّة، فقد تجرّأت مجتمعةً في «وثيقة حقّ» (كايروس-فلسطين)، على الخروج من اللغة الخشبيّة التقليديّة حول السلام، لتدعو إلى مقاومة الاحتلال مرتكزة على تعاليم المسيح، وسمّت صراحة الاحتلال بالتمييز العنصريّ، كما أنّها عبّرت بصراحة ووضوح عن مشروعيّة الصراع المسلّح لرفع الاحتلال والتمييز

البلاد

مقابلة | اجراها موسى السادة

حاتم محتسب

المنسّق العام لـ«حركة الشباب الفلسطيني»

- تحوّل جوهري للخطاب في الغرب
- لبناء حاضنة شعبية عالمية للمقاومة
- أيّ عمل لفلسطين معرّض للقمع والترهيب

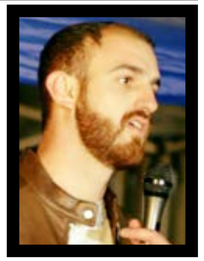

قبل عدة سنوات، خلال حديث عابر في أحد شوارع أوروبا مع فتاة، سألتني من أين أنت؟ فأجبت، كالعادة، انا عربي. فابتهجت سروراً وأخرجت هويّتها لتريني أن جدها عربي، فلسطيني، ثم استدركت بسرعة، أن لا علاقة لها بفلسطين، وأن هذا كل ما تعرفه، او سمعته وهي صغيرة، أن جدها أتى من ديار بعيدة تسمى فلسطين، مجرد ما انتهينا من الحديث، وقفت لوهلة ثم استوعبت حقيقة ما حدث، أنني شهدت منذ دقائق معدودة المنتج المادي والتاريخي الاخير لمشروع الإبادة الصهيوني، أن يشتّت الشعب الفلسطيني حول العالم، ثم تنتهي صلته بأرضه الأم، فينتهي وجوده، ويباد. ضمن هذا السياق، سئل الشاعر الفلسطيني فواز تركي مرةً حول معنى أن تكون فلسطينياً في الشتات؟ ليجيب «ما دمت تريد العودة، فأنت فلسطيني».

من هذا المنطلق والروحية، تناضل «حركة الشباب الفلسطيني» أو الـ«PYM»، حيث تعرّف عن نفسها بانها حركة شعبية مستقلة، عابرة للحدود، تجمع شبّاباً فلسطينيين وعرباً في الشتات، غايتهم تحرير الأرض والشعب من براثن المشروع الاستعماري الصهيوني. تنشط الحركة بشكل رئيسي في الولايات المتحدة الأميركية، ولها وجود في كل من كندا واوروبا، إضافة إلى حضورها المؤثر إعلامياً وعلى وسائل التواصل الاجتماعي، الأمر الذي مكّنها من أن تحجز مكاناً بإحدى أبرز الحركات الفلسطينية في الشتات.

المنسق العام للحركة، حاتم محتسب، يتحدّث إلى «الأخبار» عن نشأة الحركة، ونموّها المتزايد، وصولاً إلى نظرتها وعملها ضمن النضال الفلسطيني. وكذلك، عن التحديات التي تواجه العمل الفلسطيني في الشتات، الذي يخوض، بدوره، معركة صمود أمام هجمة الحركة الصهيونية وداعميها، والتي لم تسلم منها الـ«PYM».

عن البداية: ما بعد اوسلو

«علينا في البداية الرجوع إلى الماضي قليلاً، فمن التبعات الكارثية لأوسلو، عملية التدمير الذاتي الممنهجة للأطر والمؤسسات التنظيمية كافة على مستوى الشتات، وخصوصاً الشتات البعيد، الأمر الذي أنتج فراغاً للأجيال الفلسطينية ودورها»، يقول محتسب. «فقبل أوسلو، كانت هناك أطر تنظيمية تابعة للفصائل ولمنظمة التحرير، الأمر الذي مكّن شعبنا الفلسطيني في الشتات من ممارسة واجباته تجاه قضيته».

كان هذا الفراغ «الدافع نحو مبادرة شبابية أتت مع نهايات الانتفاضة الثانية، بين عامَي 2006-2007 من العديد من الشباب الفلسطيني في الغرب، وكذلك في مخيم اليرموك وفي مخيمات الأردن، لإقامة شبكة ومؤتمر يجمع الشباب الفلسطيني على اختلاف الجغرافيا، هدفها أن نطلع بعضنا البعض كفلسطينيين على طبيعة حياتنا وعملنا». توّجت هذه الجهود بأول مؤتمر، عقد في تموز 2006 في إسبانيا، وتبعة مؤتمر باريس 2007، ومدريد 2008. «أثمرت هذه الجهود عن تأسيس ما أطلق عليه حينها "شبكة الشباب الفلسطيني" بوجود رئيسي في مخيم اليرموك في سوريا، ثم ليتغيّر الاسم إلى "حركة الشباب الفلسطيني" عام 2011، وبانتشار يشمل كلاً من فرنسا والسويد وأميركا». إلا أن الأحداث السياسية التي عصفت بالوطن العربي عام 2014 ألقت بظلالها على الحركة، «ما أسفر عن أن يكون التمركز الرئيس لـ«PYM» في أميركا، وبداية في كل من سان فرانسيسكو وسان دييغو ونيويورك.

في عام 2015، والذي كان مفصلياً، تأسس المخيم الصيفي وأقيم في كاليفورنيا لمرحلة جديدة، «فقد تم انتخاب اللجنة العمومية للشبكة، واتخذ قرار البناء والتوسع نحو كندا وأمكنة أخرى. إضافة إلى ذلك، جرى التأكيد على أن من واجبنا التصدي لجميع نواحي هموم الجالية الفلسطينية في أميركا، سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، ففي الأخير نحن منها وإليها».

في الإطار العام، انطلقت الـ«PYM» كردة فعل على تردي الحالة الوطنية الفلسطينية بشكل عام «ونحن كحركة، جزء من الجسد الفلسطيني الواحد، وإن كان متباعد الأطراف، فكل ما يحدث داخل أرض الوطن من الضفة وغزة والمخيمات، له تأثير مباشر على عملنا وفكرنا ومعنوياتنا وتحديدنا للأولويات ومسؤوليتنا أن نحسن استثمار هذا الزخم من آلاف المتظاهرين، وأن نحثّ هذه الجماهير على الانخراط الدائم والمستمر في النضال.

لم يكن هذا الزخم الثمرة الاستراتيجية الوحيدة أو حتى الأهم، فما لم يلاحظه كثيرون أنه خلال وعبر «سيف القدس»، شهد الخطاب السياسي والجماهيري في الغرب حول فلسطين تحولاً جوهرياً، إذ هيمنت صيحات وخطابات تنادي بتحرير كامل التراب الفلسطيني من البحر إلى النهر، وكذلك دعم المقاومة بأشكالها كافة، «وهذه النقلة النوعية تستدعي التوقف والشرح: نحن نرى في PYM أن من خصال العمل الثوري، في كثير من الأحيان، كباحثين وباحثات ونشطاء، ننتقل في حياتنا المهنية من مشروع إلى آخر. يعدّ هذا مألوفاً في عالمنا الأكاديمي الذي يفرض علينا الالتزام بمحدودية ومنهجية وأخلاقيات العمل في المجال الأكاديمي. وغالباً ما ننسى أنفسنا وننسى اللحظات الجديرة بالاحتفال، فلا نتوقف لإبراز إنجازاتنا الخاصة، وإنجازات أولئك الذين نعمل معهم، وخصوصاً ممن يوجّهوننا ونوجّههم. ولهذا، فإننا نرغب هنا في عكس هذا التوجّه، لتكون هذه المقالة بمثابة صرخة عالية نقول فيها: «لقد فازت الدكتورة رباب مرة أخرى»، أو بالأحرى، حصلت الدكتورة رباب عبد الهادي على جائزة «جيري باخراش» من جمعية دراسات الشرق الأوسط (MESA).

في هذه المقالة نشارككم الأسباب التي حفّزتنا لترشيح الدكتورة رباب عبد الهادي لجائزة MESA من خلال نظرة سريعة على تاريخها الطويل كركيزة في المجتمع الفلسطيني، مع إبراز أيضاً تأييد مجموعة من زملائها الأساتذة وطلاب الدراسات العليا، بما في ذلك الدكتور خوان كول، الدكتور جون شالكرافت، الدكتورة نانسي غالاغر، الدكتورة ميشيل هارتمان، الدكتورة روزاليند بيتشسكي، هيذر بورتر أبو دياب، الدكتورة ندى شبوط، والدكتور اسطفان شيحي.

الدكتورة رباب عبد الهادي مفكّرة متشابكة وأكاديمية معروفة، سخّرت تجربتها الثقافية، وكرست حياتها لتطوير وتوسيع مفاهيمنا للموضوعات التي تقع في صميم دراسات الشرق الأوسط، أي بمعنى آخر لهذه الجمعية؛ بدءاً من بناء المؤسسات والدوائر الأكاديمية، وصولاً إلى بذل جهود مهنية واسعة النطاق. عملت الدكتورة رباب عبد الهادي بلا كلل لإنشاء البنية التحتية الفكرية لتخصصات متعددة في دراسات الشرق الأوسط، من خلال التوعية والتعاون مع مجموعة واسعة من الشراكات المجتمعية والأممية، كما ساهمت بتعزيز الفهم للنضال الفلسطيني، ونضال العديد من شعوب ومجتمعات الشرق الأوسط ضد الأفكار الصهيونية والاستشراقية والإمبريالية المهيمنة، وذلك عبر الدفاع عن الحريات الأكاديمية وتوجيه استقطاب الآلاف من الطلاب والعلماء والناشطين والناشطات الناشئين والناشئات ورعايتهم. ودفعت الدكتورة رباب إلى الواجهة بقضايا ونظريات ومواضيع معرفية جديدة، وبأصوات كانت ستظل لولا جهودها مهمشة أو صامتة. أمّا الجيل الجديد، فاستلهم من مساهماتها المتميّزة وشجاعتها وكرمها وإبداعها والتزامها، ولا سيما استمرارها في معارضة استخدام النوع الاجتماعي والجنسوي كأدوات للشرطة والعنصرية والإمبريالية. قامت الدكتورة رباب بذلك كلّه في خضمّ تصميمها نموذجاً للنضال من أجل التحرر من جميع أشكال الاضطهاد، ورفض التنافس غير المبدئي لنضال على حساب آخر. يظهر السِجل الاستثنائي للدكتورة رباب عبد الهادي في فتح/ أو توسيع المساحات المؤسسية والبُنى التحتية الفكرية لدراسات الشرق الأوسط، من خلال إنجازاتها ومساهماتها، وهو ما يعكسه نص تكريمها، الذي جاء في إطار: «تكريم مساهمات الأفراد من خلال خدمتهم المتميزة لجمعية دراسات الشرق الأوسط خاصة أو دراسات الشرق الأوسط برمتها».

المقال كاملاً على الموقع

هذه الملحمة خرجت تظاهرات في لوس أنجلوس ومشيغن وهيوستن، شارك فيها عشرات الآلاف، وكانت الـ PYM أحد أهم الفاعلين فيها، حتى إن الأجيال السابقة من الفلسطينيين المقيمين في أميركا ما قبل أوسلو، لاحظت أن مثل هذه التظاهرات كما ونوعاً، لم تحدث منذ الانتفاضة الثانية». شكلت هذه التظاهرات «بداية مرحلة جديدة لنا كحركة، وليس فقط من جانب مئات المنضمّين الجدد، بل إننا وجدنا أنفسنا أمام مسؤولية أن نحسن استثمار هذا الزخم من آلاف المتظاهرين، وأن نحثّ هذه الجماهير على الانخراط الدائم والمستمر في النضال.

لم يكن هذا الزخم الثمرة الاستراتيجية الوحيدة أو حتى الأهم، فما لم يلاحظه كثيرون أنه خلال وعبر «سيف القدس»، شهد الخطاب السياسي والجماهيري في الغرب حول فلسطين تحولاً جوهرياً، إذ هيمنت صيحات وخطابات تنادي بتحرير كامل التراب الفلسطيني من البحر إلى النهر، وكذلك دعم المقاومة بأشكالها كافة، «وهذه النقلة النوعية تستدعي التوقف والشرح: نحن نرى في PYM أن من خصال العمل الثوري، أميركا رأس الحربة، ولا نرى أنفسنا منعزلين عن كل الحراك الثوري في العالم الثالث ضد الإمبريالية. وما تمركزنا في أميركا سوى مدعاة للمسؤولية، بأن نظهر تواطؤ أميركا مع الحركة الصهيونية وعملائها من الدكتاتوريات والأنظمة اليمينية في أميركا اللاتينية وغيرها، وكذلك وعلى الطرف الآخر، نرى شعوباً صديقة للشعب الفلسطيني». إنّ المعركة مع الحركة الصهيونية، وفق محتسب، «حلبتها العالم بأسره، فهي في كل مكان، وتستهدفنا في كل مكان».

وبالعودة إلى «سيف القدس»، فإن «المسؤولية الراهنة اختلفت، إذ أصبح لدينا مئات المنتسبين، وعلينا تبني آلية عمل أكثر فاعلية، وذلك في مخيمنا الصيفي عام 2022، وضعنا أمامنا سؤالاً مركزياً شاملاً الا وهو: كيف نواجه الصهيونية في الشتات؟ فاليوم يعيش الخطاب الصهيوني داخلياً وفي أميركا أزمة، وعلينا استغلالها، وأوّل الأجوبة على كيفية هذه المواجهة، هي المبادرة، والتحول من الدفاع إلى الهجوم، وإشهار صلابة مواقفنا السياسية دونما خجل أو وجل او ركاكة». إلا أن هذه الصلابة «تستدعي الحرص والحكمة أيضاً، فنحن نعمل في أرض عدائية، في قلب الإمبراطورية والبقرة الحلوب للعدوّ، وحليفه الاستراتيجي. فعلى سبيل المثال، نحن كحركة نرفض أن نسجلها كمنظمة غير حكومية (NGO) ولذلك أسباب سياسية وكذلك أمنية، لنحصّن أنفسنا من استهداف اللوبي الصهيوني الذي يملك الميارات».

إنّ العمل لأجل القضية الفلسطينية من داخل الولايات المتحدة «صعب»، يقول محتسب، «ونحن على علم أنه كلما زاد حجم أثرنا، سنكون عرضة للاستهداف أكثر، وهو ما نستشرف حدوثه قريباً، إن لم يكن قد بدأ بالفعل سواء من مراقبة وانتظار أيّ حجة أو زلّة منا». فإلى جانب الهجمة الإعلامية التي بدأت بالفعل، فقد تم إرسال خطابات عديدة للكونغرس الأميركي تحذّر من النمو المتزايد لـ«PYM»، «والتجربة التاريخية تقول لنا إن أي عمل لفلسطين معرّض للقمع والترهيب والاتهامات الجاهزة بمعاداة السامية والإرهاب، وطالما تعرّض الفلسطينيون في أميركا للقمع والترحيل وسحب الجنسيات، وآخرها المناضلة رسمية عودة التي سُحبت منها الجنسية، وزُجّت إلى الأردن عام 2015، وكذلك العديد من المعتقلين بتهم "الإرهاب" كالذي حصل مع "جمعية الأراضي المقدسة"، إلا أن كلمتنا الأخيرة هي أننا مستعدون لدفع ثمن هذه الفاتورة، وتضحياتنا لا تقارن مع ما يقدّمه شعبنا من دماء، ونحن لن نتخلّى عن فلسطينيّتنا وعن مصيرنا المشترك مع شعبنا في كل مكان، حتى التحرير والعودة».

«صامدون»

صوت الأسرى وذراعهم في الشتات

محمد الخطيب *

قبل عامين من الآن، تحديداً في شباط 2021، أدرج وزير الحرب في الكيان الصهيوني بيني غانتس «شبكة صامدون» على ما يسمّى «قوائم الإرهاب». فمن هي هذه الشبكة، ولماذا تلقى هذا الاهتمام؟

تأسست «شبكة صامدون للدفاع عن الأسرى الفلسطينيين»، وتعرف اختصاراً بـ«صامدون»، عام 2011 في كندا، ومع الوقت أصبحت واحدة من أهم المنظمات الأممية - الفلسطينية العاملة في مواجهة الحركة الصهيونية خارج فلسطين المحتلة. وكانت أولى فعالياتها - التأسيسية رسمياً - تضامناً مع الشيخ خضر عدنان الذي كان يخوض في حينها إضراباً مفتوحاً عن الطعام.

تضم «صامدون» اليوم في صفوفها المئات من الأنصار الأمميين من نحو 20 دولة تقريباً، وعشرات الشباب الفلسطيني والعربي الذين وجدوا أنفسهم/ن لاجئين/ات جدداً في عواصم أوروبية عدة، وصولاً إلى أميركا الشمالية والجنوبية، بسبب الحروب والتهجير والحصار في بلدانهم، ولا سيما في السنوات العشر الأخيرة.

الهوية النضالية

تُقدّم «صامدون» نموذجاً ثورياً في العمل التنظيمي والنضالي والشعبي في الشتات، وتتميز هذه التجربة بسبب طبيعة وهوية الشبكة، وتعددية كوادرها الفلسطينية والعربية والأممية، فهناك قناعة راسخة تكرست خلال سنوات العمل، هي أن النضال من أجل حرية الأسرى الفلسطينيين والعرب والأمميين، وتحرير فلسطين من النهر إلى البحر، يعني تغييراً جذرياً في المنطقة والعالم، يتجاوز حدود فلسطين الجغرافية، ويصب في مصلحة كل الشعوب وحركات التحرر، وخاصة تلك التي تواجه الفاشية والعنصرية والرأسمالية في قلب المستعمرات الكبرى، مثل الولايات المتحدة وكندا، وكذلك القوى الاستعمارية القديمة/ الجديدة في أوروبا.

انطلاقاً من تلك القناعة، يبدو طبيعياً أن تدعم «صامدون» حملات التضامن مع المعتقلين السياسيين في سجون الولايات المتحدة واليونان وتركيا والفيليبين وغيرها، كما من الطبيعي أن تتبنّى موقفاً مسانداً للمعتقلين السياسيين في السجون العربية، بما في ذلك الحملة المستمرة لمساندة المعتقلين السياسيين في سجون السلطة الفلسطينية، وفي مواجهة أجهزة التنسيق الأمني مع الكيان الصهيوني في الضفة المحتلة، فضلاً عن مواجهة كل أشكال القمع والفساد.

وللترويج لقضية الأسرى، أطلقت «صامدون» حملة تعريفية بخمس لغات أجنبية، تضمنت تاريخ الأسرى المعتقلين في السجون الصهيونية، ما قبل اتفاقية أوسلو 1993. كما تستعد هذه الأيام لإطلاق حملة دولية للمطالبة بتحرير جثامين الشهداء المحتجزة لدى الاحتلال، وضد ما يسمى «مقابر الأرقام» التي يحتجز الاحتلال ضمنها مئات الشهداء، منذ انطلاق الثورة الفلسطينية حتى اليوم، ومنطق هذه الحملة هو الواجب تجاه عوائل «الشهداء الأسرى»، ومن أجل وحدة الشعب والقضية والحقوق، وبناء جسور النضال والعودة بين المنفى والوطن.

حملات صهيونية.. ومبادرات لا تتوقف

لا تتوقف الحملات الصهيونية ضد «صامدون»، عبر التحريض المستمر، ومحاولات تجريمها بذرائع مختلفة، منها الربط بينها وبين «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» ربطاً بما يسمى بـ«المنظمات المدرجة على قوائم الإرهاب».

تعرّضت كوادر «صامدون» خلال السنوات العشر الماضية لكل أشكال القمع والتضييق، بما في ذلك التهديد المباشر والإبعاد والترحيل، وصولاً إلى التهديد بالسلاح والضرب والاعتقال. ففي بلد مثل ألمانيا مثلاً، تواجه الشبكة حملة صهيونية وفاشية مستمرة وممنهجة من التضييق، إضافة إلى أشكال متعددة من إرهاب الدولة.

إلا أن كل محاولات القمع والترهيب فشلت في التأثير على تطور وسير العمل، وعلى العكس تماماً، فإن عضوية «صامدون» تتوسع، وينتمي إليها عدد أكبر من الشباب الفلسطيني والعربي في أكثر من بلد، وهؤلاء يقودون الفعاليات اليوم في مختلف الساحات. يأتي هذا إيماناً بأن المواجهة المستمرة مع العدو الصهيوني وحلفائه، تشكل في الحقيقة، أحد أهم مصادر القوة ومراكمة التأثير والفعل. فمثلاً تعمل «صامدون» على تنظيم الأسبوع العالمي للتضامن مع قادة يساريين، مثل الأسير والقائد الوطني أحمد سعدات، الأمين العام لـ«الجبهة الشعبية» الذي اختطفته أجهزة السلطة الفلسطينية في 15 كانون الثاني 2002، واعتقلته مع رفاقه في سجن أريحا لمدة 4 سنوات، لتعود قوات الاحتلال وتختطفه في 15 آذار 2006. كما تنظّم رابطة «فلسطين ستنتصر»، إحدى أهم المنظمات المنضوية في «صامدون»، حملات التضامن مع الأسير العربي اللبناني جورج إبراهيم عبد الله، المعتقل في السجون الفرنسية منذ عام 1984، وجزء من النضال من أجل تحرير عبد الله نقل فكره ومواقفه إلى مساحات شعبية واسعة، بعد تغييب قضيته عقوداً من الزمن.

واستناداً إلى هذه الرؤية النضالية والسياسية لدى «صامدون»، تدعم الشبكة نضالات المعتقلين السياسيين في العالم، عبر صياغة علاقات مباشرة بين الحركة الوطنية الأسيرة في فلسطين والحركات الثورية حول العالم، ضمن رؤيا جوهرها الدور الاستراتيجي المهم، والموقع الذي تمثّله الحركة الأسيرة، كإحدى أهم قواعد المواجهة والمقاومة اليومية، وعلى أساس أنها تشكل القيادة الوطنية الموثوقة لدى الشعب الفلسطيني. وعليه، فإن «صامدون» تنظر إلى الحركة الأسيرة باعتبارها خط الدفاع الأول عن شعبنا، وأنها تمثل مرجعية وطنية، لها الدور المؤثر والفاعل في القرار السياسي الفلسطيني، وفي رسم استراتيجية العودة والتحرير.

تعرّض كوادر «صامدون» خلال العشر الماضية لكل أشكال القمع والتضييق

المقاومة والجماهير

تنحاز «صامدون» إلى المقاومة الفلسطينية واللبنانية المسلّحة، وتعتبر تحرير الأسرى مهمّة أساسية، تتحقق بالفعل المقاوم، وفي الوقت ذاته، ترى أهمية خاصة للدور الجماهيري والإعلامي والسياسي والثقافي في نشر صوت الأسرى والدفاع عن حقوقهم على المستوى الدولي، كما ترى أن هذه المسؤولية يجب أن تظل ثابتة على أجندة الشعب الفلسطيني في الشتات، وعلى برنامج أنصار فلسطين، وقوى التحرر وحركات المقاطعة الدولية.

وضمن ما تفعله «صامدون» لتحقيق تلك الرؤيا، تنشر على موقعها الإلكتروني، بعشر لغات، تقارير شبه يومية عن جرائم الاحتلال بحق الأسيرات والأسرى، وتدعو أنصارها وكل من تصل إليهم الشبكة، إلى كتابة الرسائل إلى الأسرى وتوجيه الرسائل إليهم.

تعتمد «صامدون» في صياغة مواقفها واستراتيجية عملها على الرؤيا النضالية التي يُعبّر عنها الأسرى أنفسهم، وتصل من داخل السجون الصهيونية يومياً. كما تتابع المقالات والدراسات والكتب ومختلف التوجيهات الصادرة من قيادة الحركة الأسيرة. وتقوم بترجمتها وتعميمها على الأعضاء والأنصار.

كما تعبّر «صامدون» عن نهجها وخطها الذي لا تحيد عنه، موقفها الجذري من الكيان الصهيوني أنه كيان عنصري استيطاني، لا بدّ من إزالته بالقوة من كل فلسطين المحتلة، من النهر إلى البحر، كما ترى أن حق العودة للاجئين الفلسطينيين هو جوهر قضية الشعب الفلسطيني، كما قضية الأسرى، بوصفها قضية الحرية بمعناها الشامل، وعليه، الهدف تحرير الأرض والإنسان.

* منسّق «شبكة صامدون» في أوروبا

رباب عبد الهادي

لماذا جائزة «جيري باخراش»؟

بقلم: كل من:

جميلة غدار زميلة ما بعد الدكتوراه ممولة من الحكومة الكندية (SSHRC) وتعمل مع ريموند فروجر بالك في مركز الوطني للحقيقة والمصالحة والدكتور جريج بالك في قسم التاريخ، في جامعة مانيتوبا

ليث غلوم طالب دراسات دكتوراه، وعضو في قسم دراسات النوع والمرأة والجنس في جامعة مينيسوتا

سليم شحادة مرشح الدكتوراه في دائرة الأنثروبولوجيا في جامعة كاليفورنيا في لوس انجلوس

الأخبار
al-akhbar
السبت 18 شباط 2023 العدد 4852

صورة وخبر

كلّل الأبيض جبال لبنان معلناً افتتاح موسم التزلّج. هكذا، احتشد هواة هذه الرياضة خلال الأيّام الماضية في مراكز كفرذبيان في قضاء كسروان. اكتظاظ دفع البلدية إلى الطلب من المواطنين عدم التوجه إلى مراكز المزار مثلاً، بسبب وصول المنطقة إلى قدرتها الاستيعابية القصوى. غير أنّ ممارسة التزلّج التي كانت أصلاً حكراً على الميسورين، باتت اليوم أكثر كلفة على اللبنانيين ولا سيّما أولئك الذين يتقاضون رواتبهم بالليرة. هكذا، ينقسم المشهد بين منتجعات «تلسياج» للمرتاحين مادياً القادرين على الدفع بالدولار الأميركي، بينما جوانب الطرقات للمثقلين بشتّى أنواع الهموم الذين جاؤوا بالنراجيل والمأكولات وافترشوا الثلج للاستمتاع بأقلّ ثمن ممكن

(علي حشيشو).

المفكرة

العلاقات الأميركية السعودية ما بعد 11 سبتمبر

■ ضمن برنامجها الشهري المخصّص لمناقشة الكتب، تدعو «دار المعارف الحكمية»، يوم الخميس المقبل إلى لقاء مخصّص لـ «العلاقات الأميركية السعودية بعد الحادي عشر من أيلول» (2021) للباحث والمحلّل السياسي بلال أحمد اللقيس (الصورة). يجري النشاط المرتقب في مقرّ «معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية»، بمشاركة جمال واكيم ورياض صوما. يتناول الكتاب طبيعة العلاقة بين أميركا والسعودية، منطلقاً من المحطات البنائية لكلّ من الدولتَيْن، وموضحاً أوجه الشبه في تلك البنى، قبل وبعد 11 أيلول.

مناقشة كتاب «العلاقات الأميركية السعودية بعد الحادي عشر من أيلول»: الخميس 23 شباط (فبراير) الحالي. الساعة السادسة والنصف مساءً. «معهد المعارف الحكمية» (الصفير. مجمّع المجتبى. ط 4/ ضاحية بيروت الجنوبية). للاستعلام: 05/472205

فيلما باميلا نصّور في مونو

■ تدعو «جمعية السبيل» و«نادي لكلّ الناس»، يوم الثلاثاء المقبل، إلى حضور فيلمَي «إلى حيث» و«محاولة» للبنانية باميلا نصّور (الصورة) في «مكتبة بلدية بيروت العامة» في مونو. «إلى حيث» فيلم تجريبي قصير حائز جوائز عدّة، تكسر من خلاله نصّور الصورة النمطية للجسد وتنسب إليه رؤية جديدة يمكن اختبارها بالعين المجرّدة. أما الروائي القصير «محاولة»، فيحكي قصة «ألفريد»، المدرّس الثانوي الذي يحاول مثل كل اللبنانيين التكيّف مع الوضع الاجتماعي السياسي في ظل تظاهرات 17 تشرين الأوّل (أكتوبر) 2019. وبضغط غير مباشر من وسائل الإعلام، ينتهي به المطاف بالانضمام لطلابه في الميدان للاحتجاج في محاولة للتغيير.

عرض «إلى حيث» و«محاولة»: الثلاثاء 21 شباط (فبراير) الحالي. الساعة السابعة مساءً. «مكتبة بلدية بيروت العامة» (مونو. الأشرفية). للاستعلام: 01/664647

خمسون درجة من الأزرق

■ «خمسون درجة من الأزرق» هو الاسم الذي أطلقته الفنانة اللبنانية فادية أحمد على معرضها الجديد المستمرّ لغاية 25 شباط (فبراير) الحالي في مبنى الصفدي للفنون الجميلة في حرم «الجامعة اللبنانية الأميركية» في بيروت. يجمع المعرض مئة لوحة من توقيع أحمد. بين الأمل والندم والرغبة والإحباط، يلخّص الحدث «الحالة الذهنية التي وجدنا أنفسنا فيها في السنوات الأخيرة»، وفق النص التعريفي الخاص به. وعلى الرغم من أنّه مستوحى في المقام الأول من الوضع اللبناني، إلّا أنّ المعرض يأخذ أبعاداً عالمية أيضاً.

معرض «خمسون درجة من الأزرق»: لغاية السبت 25 شباط 2023. مبنى الصفدي للفنون الجميلة في حرم «الجامعة اللبنانية الأميركية» في بيروت.

الأخبار
al-akhbar
صادرة عن شركة أخبار بيروت

■ رئيس التحرير
ابراهيم الأمين
■ مدير التحرير المسؤول
وفيق قانصوه

■ مجلس التحرير
أمل الأندري
محمد وهبة
وليد شرارة
دعاء سويدان
جمال غصن
حسين سمور

■ المدير الفني
صلاح الموسى

■ المكاتب
بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد الطابق الثامن
■ تلفاكس: 01759500 01759597
■ ص. ب 113/5963

/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/AlakhbarNews

■ الإعلانات
الوكيل الحصري 01/759500 ads@al-akhbar.com
■ التوزيع
شركة الأوائل
15ـ 01/666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

الأخبار
al-akhbar
السبت 18 شباط 2023
العدد 4852 السنة السابعة عشرة
Samedi 18 Février 2023 nº 4852 17ème année

كلمات

ملحق
أسبوعي
www.al-akhbar.com

مارتين غوتيريز ــ «كريستوفر كولومبس كان بيدوفيلياً. ص 78 امرأة من السكان الأصليين» (طباعة كروموجينية ــ 2018)

هل «اكتشف» كولومبوس أميركا حقّاً؟

سعيد محمّد

هل «اكتشف» كولومبوس أميركا؟ تبدأ كارولين دودز بينوك الصفحة الأولى من كتابها الشجاع حول وصول أبناء حضارات الأزتيك والمايا والتوتوناكس والإنويت وغيرها من سكان الأميركيتين الأصليين إلى أوروبا الحديثة، بالتنبيه إلى خطورة اختيارنا للكلمات والمصطلحات عند مقاربة الحدث التاريخي. السرديّة المغرقة في أورومركزيّتها التي تروي قصة كريستوفر كولومبوس وغيره من المستكشفين والمستعمرين والمستوطنين، تصف مثلاً وصول طلائع الغزاة الإسبان إلى «الأميركيتين» بـ «اكتشاف» أميركا عام 1492، كأنّ تلك البلاد الشاسعة كانت غير مأهولة بالسكّان. وراء فكرة «الاكتشاف» تلك، يكمن خيال ديبلوماسيّ مريض يعود تاريخه إلى «معاهدة توردسيلاس» عام 1494، التي قسمت «العالم الجديد» بين الإسبان والبرتغال، وسمحت للأوروبيين باستيطان الأراضي «المكتشفة» من دون أدنى إشارة إلى أصحابها الأصليّين.

تحطيم هذا التأطير التاريخيّ التقليديّ المنحاز في استعادة الحدث منطلق لا بدّ منه لفهم أبعاد حكاية سكان «أميركا» الأصليين الذين «اكتشفوا» أوروبا، كما يؤطرها عنوانها الفرعي لكتاب بينوك الجديد «على شواطئ متوحّشة» (On Savage Shores: How Indigenous Americans Discovered Europe- W&N, 2023)، وهم مئات الآلاف من أبناء الحضارات العريقة لما سمّي بـ «العالم الجديد» التي سافرت شرقاً، بعيداً عن أوطانها، بداية عام 1492. ولأن تلك مهمّة ضخمة سها عنها طويلاً التاريخ الأورومركزيّ، تركّز بينوك على أول 100 عام من ذلك التّبادل «المعكوس» بين أوروبا والأميركيتين، بخاصة على شخصيّات أولئك الذين ظهروا كغرائب إكزوتيكيّة: ملك برازيلي في بلاط العاهل الإنكليزيّ هنري الثامن؛ أميرة الإنكا، دونا فرانسيسكا بيزارو يوبانكي، التي عملت كسفيرة للسكان الأصليين؛ ودييغو دي توريس إي موياشوك، الذي أصبح مدافعاً في إسبانيا عن حقوق سكان الأميركيتين الأصليين في أواخر القرن السادس عشر.

بالنسبة إلى مئات الآلاف من أبناء الأميركيتين الأصليين، فإنّ «الاكتشاف» ذهب في الاتجاه الآخر تماماً لرحلة كولومبوس. وعندما وصل هؤلاء إلى البرّ الأوروبيّ اكتشفوا مجتمعات اختلطت غرائبها مع وحشيتها، وثرواتها الباذخة مع تفاوتاتها الطبقيّة الحادّة، وصدمتهم من شدّة تعصبّها.

غالبيّة هؤلاء لم يعبروا المحيط الأطلسي نحو أوروبا بمحض إرادتهم. رغم أنّه كان - نظريّاً - لا يمكن استعباد أبناء الشعوب الأصلية وفق القانون إلا في ظل استثناءات معينة (مثلاً إذا كانوا من آكلي لحوم البشر، أو تم إنقاذهم من الاستعباد لدى غير المسيحيين، أو تم أسرهم في حرب «عادلة»)، إلا أن تفسير تلك الاستثناءات كان دائماً مرناً ورحباً. ويقدّر أنّ ما حوالى مليونين من سكان الأميركيتين الأصليين قد تم استعبادهم قبل عام 1600 منهم ما لا يقلّ عن 650 ألفاً إلى أوروبا. كولومبوس وحده استعبد ما بين 3000 و6000 رجل وامرأة وطفل من سكان الكاريبي. هناك كثير من العتمة التي تكتنف تفاصيل جرائم الاستعباد تلك، وبالكاد تجد عنها شذرات متفرقة هنا وهناك في سجلات أوروبا العصور الوسطى. يقول أحد المغامرين الغزاة مثلاً ألونسو دي أوجيدا في مذكراته في عام 1499 إنّه «حصل على بعض نساء «الهنود الحمر» ذوات جمال خارق». وفي سجلات رحلة كولومبوس الثانية وصف تفصيليّ لاغتصاب امرأة كاريبية حسناء من قبل صديقه المقرّب ميشيل دا كونيو.

بينوك واضحة وصريحة بشأن هذا التحدي في كتابة تاريخ ما «تغافل» عنه التاريخ. هذا يعني البحث عن إبر في أكوام من القش، والتعامل مع قصص غير مؤكدة أو تلميحات غير حاسمة، مع انحياز مخلّ في توثيق جوانب الحدث ومنهجيّة تأطيره. لكنّ روايتها المعاكسة لحكاية «الاكتشاف» التقليدية تسهم بمجملها في إعادة موضعة سكان الأميركيتين الأصليين في قلب الحدث التاريخيّ، وتنبهنا إلى الطرق المشوهة التي تشكلت بها صورتنا المغرقة في أورومركزيّتها عن الماضي.

ملف

«شارلي إيبدو»... الوجه البشع لشيخوخة فرنسا

وليد شرارة

أصل المشكلة، بنظر «شارلي إيبدو» هو الإسلام وتعاليمه التي تحضّ على «التعصب والانغلاق والعنف»

لا ضير بالنسبة إلى هؤلاء من استعادة الخطاب الكولونيالي العنصري عن الإسلام الذي اعتمد في حقبة التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر

جنوح رهط من اليساريين نحو تبنّي أطروحات مغرقة في الرجعية ومواقف عنصرية ليس بالأمر الجديد في التاريخ السياسي المعاصر، خصوصاً على الساحة الفرنسية. في هذه الساحة، برزت ظاهرة «الفلاسفة الجدد» في أواسط سبعينيات القرن الماضي من المثقفين اليساريين، والعرب، مع «أسلحتهم وأمتعتهم» وفقاً للتعبير الفرنسي المعروف، بخندق «الهيمنة الحميدة الأميركية»، للتصدي لما عرف بأنه «شمولية إسلامية»، شبكة متطرفة معولمة كـ «القاعدة» صُنّفت على أنها أشد خطورة على شعوب المعمورة من منظومة السيطرة الغربية السائدة منذ قرون!

أسبوعية «شارلي ايبدو» كانت بين المنضوين تحت راية الحرب الكونية على «الإرهاب»، وأعادت صياغة خطها التحريري وجميع مواقفها على قاعدة هذه الأولوية. لا يمكن فهم الرسم الأخير الخاص بالزلزال الذي وقع في تركيا وسوريا، نفذت مجموعة من المتطرفين لإرسال الدبابات»، الذي نشر على صفحاتها، وجميع الرسومات الأخرى التي سبقتها، والتي أثارت جدلاً واسعاً في العقدين الماضيين، خارج هذا السياق العام الفكري والسياسي. أصل المشكلة، بنظر «شارلي ايبدو»، ومعها تيار عريض من الأنتلجنسيا الفرنسية والغربية، هو الإسلام وتعاليمه التي تحض على «التعصب والانغلاق والعنف»، وتحول اتباعه في بلدان الغرب إلى «خلايا نائمة» إرهابية جاهزة للانقضاض على أبناء «المجتمعات المضيفة» في اللحظة المناسبة. لا ضير بالنسبة إلى هؤلاء من استعادة الخطاب الكولونيالي العنصري عن الإسلام الذي اعتمد في حقبة التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر لإسباغ سمة «المهمة الحضارية» عليه. ينبري اليوم المدافعون عن حق الأسبوعية «الساخرة» بالشماتة بضحايا الزلزال، بالتذكير بـ «حرية التعبير» المقدسة في المراكز الإمبريالية وبينها فرنسا. لا بد من التوقف بداية عند مقولة «حرية الرأي» العتيدة، في بلد قدم رئيسه قبل ثلاث سنوات مشروعاً لقانون يجرم العداء للصهيونية باعتبارها صيغة مستحدثة للاسامية، وهي جناية يعاقب عليها القانون الفرنسي. وبالنسبة إلى الحرب في أوكرانيا للمثال لا الحصر، يمارس هذا البلد إرهاباً فكرياً-سياسياً حقيقياً بحق أي رأي معارض أو حتى نقدي لسياسة باريس الحالية حيالها. في الواقع، وعلى الرغم من الانقسامات السياسية والاجتماعية الداخلية التي تشهدها فرنسا، فان حرية الرأي تتراجع، بخاصة إذا تعلق الأمر بقضايا هي محط إجماع أيديولوجي- سياسي صاغه ما يسميه الخبير بيار كونيسا، في كتابه الهام «تسويق الحرب»، المجمع الفكري-العسكري، أي شبكات مراكز الدراسات والباحثين التي تتولى بلورة المفاهيم والمقولات التي تبرر التوجهات المعتمدة من قبل الفئات الحاكمة، والتي يجري ترويجها من خلال أجهزة الدعاية الإعلامية. يتوازى انحسار مساحة حرية الرأي وطغيان الأيديولوجيا السائدة مع انفلات خطاب الكراهية من عقاله بشكل غير مسبوق في «بلاد حقوق الإنسان»، كراهية المسلمين أساساً، ولكن كراهية الروس والصينيين كذلك في الفترة الأخيرة. آخر نموذج لهذا النمط من «حرية التعبير» هو المقابلة التي أجراها المتفلسف ميشال اونفري مع الكاتب ميشال ويلبيك في مجلة «الجبهة الشعبية»، وهي مقابلة بالغة الدلالة، «توقع» فيها الثاني قيام مواطنين فرنسيين بـ«عمليات مقاومة» على حد تعبيره، عبر استهداف مقاه ومطاعم للمسلمين في فرنسا. تحريض علني على القتل بدوافع عنصرية لم يواجه بأي إجراء قانوني، ولا حتى بإدانة شكلية من قبل التيار الرئيسي في النخبة السياسية وأبواقها الإعلامية! لا داعي لتصوّر ردود الفعل الرسمية والشعبية لو صدر كلام مشابه من أي جهة تجاه اليهود الفرنسيين! تنمو في فرنسا المنحدرة، التي يتكل نفوذها بسرعة كبيرة في «حديقتها الخلفية» السابقة في المغرب العربي والقارة السمراء، عصبية بيضاء يجري التعبير عنها بلغة منمّقة على المستوى الرسمي، كحديث ماكرون عن «انفصالية إسلامية»، وبأشكال أكثر فجاجة من قبل اليمين المتطرف أو من قبل نشرة متخصصة في تعميم الكراهية كـ «شارلي ايبدو». لا يمكن فهم الرسم المنشور فيها خارج هذا الإطار العام.

«دبّابات» شارلي

عن أيّ دبابات يتحدث التعليق المصاحب للرسم؟ حاول البعض - لنفي الخلفية العنصرية الحاقدة عنه – التأكيد بأن المقصود هو المقارنة بين ضحايا الحرب في أوكرانيا وضحايا الزلزال، وهو تفسير بمنتهى البلاهة بطبيعة الحال. فما هي الفكرة التي يراد إيصالها من خلال مثل هذه المقارنة، وعبر التعليق المشار إليه؟ إذا وضعنا جانباً التبريرات الجوفاء للرسم، من نوع «أنه في أوكرانيا وتركيا، هناك الكثير من الموتى»، ومتابعة بالحد الأدنى للأخبار تكفي لمعرفة ذلك، فإن ما لا شك فيه أنّ غاية «شارلي ايبدو» منه مختلفة تماماً. شعارات من نوع «أرسلوا الجيش» أو «أرسلوا الطيران والمدرعات» كانت ترفع باستمرار من قبل ما اصطلح على تسميته في فرنسا «الحزب الاستعماري»، أي أنصار الاستعمار الأكثر حماسة وصحفهم وقياداتهم، كلما واجه هذا البلد احتجاجات أو مقاومة من قبل الشعوب المستعمرة. المعنى المقصود من قبل أسبوعية كراهية المسلمين كشعوب، وليس الإسلام كدين فقط، هو أنه لا حاجة إلى إرسال الدبابات الفرنسية والغربية لأن الزلزال تكفّل بالمطلوب، أي بنشر الموت والدمار بينهم. لكن هناك حقيقة أخرى يعكسها هذا الاحتفاء بالموت الجماعي والشماتة بالضحايا، وهي أن «الطبيعة» قامت بما لم تعد فرنسا قادرة على فعله، وهو شن الحروب وتحمل تبعاتها، نتيجة لتراجع قدراتها، وهزائمها المتتالية على مسارح العمليات الخارجية، وأخرها هروبها المذلّ من منطقة الساحل في مواجهة المجموعات السلفية الجهادية المسلحة. ومراجعة تاريخ فرنسا المعاصر منذ بدء انحسارها كقوة استعمارية في النصف الثاني من القرن العشرين، تظهر الصلة العضوية بين هذا التطور ونشوء وصعود اليمين المتطرف في داخلها، وانتشار الأطروحات الفاشية في مجتمعها، والميل المتزايد إلى اختراع عدو داخلي يصنف تهديداً وجودياً.

نوستالجيا الاستعمار والفاشية

ينسى كثيرون أنّ أبرز حزب لليمين المتطرف في فرنسا، واسمه اليوم «التجمع الوطني»، و«الجبهة الوطنية» في الماضي، أسّس من قبل أنصار «الجزائر الفرنسية»، الرافضين لجلاء الاستعمار عنها بعد هزيمته من قبل جبهة التحرير الوطني الجزائرية. نقل هؤلاء حربهم إلى الداخل الفرنسي ضد المهاجرين الجزائريين وأبنائهم وأحفادهم، قبل غيرهم، باعتبارهم طابوراً خامساً. لقد نجح هذا الحزب، بعد عقود عدة على تشكيله في التحول إلى لاعب مركزي على الساحة السياسية، والى كسب تأييد قطاعات وازنة من الفرنسيين لأطروحاته عن «التهديد الإسلامي»، ونظرية «الاستبدال الكبير»، أي حلول المهاجرين وأبنائهم مكان «الفرنسيين الأصليين»، لأسباب عدة بينها تبني شرائح من «المثقفين» لها والمساهمة في بثها. انحدار فرنسا كقوة استعمارية كان ولادة لأنوية الأولى للفاشية، لكن استمرار الانحدار، نتيجة للتغيرات البنيوية الجيوسياسية والجيو ـ اقتصادية على الصعيد الدولي، وأهمها صعود دور اللاعبين غير الغربيين واتساع نفوذهم على حساب سطوة ونفوذ الغرب، وما ينجم عن ذلك من تأجج للتناقضات السياسية والاجتماعية في داخله، هي التي تفضي إلى انزياحات لأوساط متسعة من مجتمعاته ونخبه نحو اليمين المتطرف. وكلما تزايد إدراك الفرنسيين والغربيين لضمور تأثيرهم ووزنهم على المستوى الدولي العام، ولعجزهم عن تغيير اتجاه هذا المسار التاريخي، كلما ستعلو الأصوات الداعية إلى وحدة «القبيلة الغربية البيضاء»، وإلى «تطهيرها» من الدخلاء والمتسللين، للحفاظ على «نقاء» هويتها، وللتصدي بفعالية أكبر لـ «الآخرين» غير الغربيين. «شارلي ايبدو» هي الوجه البشع لشيخوخة فرنسا، ولنوستالجيا الاستعمار التي تسكنها، والتي تعبّد الطريق أمام صعود الفاشية.

رسمة «شارلي إيبدو» التي أثارت الجدل وكتب عليها: زلزال في تركيا... لا داعي حتى لإرسال الدبابات

أيّ سخرية تلك التي تقف مع السلطة؟

مصطفى شلش

في 6 شباط (فبراير) الماضي، ضرب زلزال مدمّر تركيا وسوريا، مُخلفاً الآف الضحايا والجرحى والمشرّدين، لتعتبره الأمم المتحدة أكبر كارثة طبيعية تضرب المنطقة منذ قرن. في هذه الأثناء نشرت «شارلي إيبدو» رسماً كاريكاتورياً جديداً للفنان بيريك جوان بعنوان «زلزال في تركيا» يظهر أكواماً من الأنقاض والمباني المنهارة، إلى جانب تعليق: «لا داعي حتى لإرسال دبابات». كان رد فعل الجمهور غاضباً، راوح على موقع التواصل الاجتماعي (باللغات التركية والفرنسية والإنكليزية) بين استنكار ما يُعتبر «خطاب كراهية» ووصفه بـ«الغبي» و«العنصري». ووصف المجلة بـ«وصمة عار على الإنسانية». في عام 2015 بعدما نشرت المجلة الفرنسية الساخرة رسوماً كاريكاتورية عن النبي محمد، نفّذت مجموعة من المتطرفين الإسلاميين هجوماً على مقرّها في باريس راح ضحيته 12 شخصاً. على إثر هذا الحادث، احتشد آلاف الأشخاص، إلى جانب العديد من قادة العالم، في عرض مشترك للتضامن والدعم للضحايا. أدّى هذا الاندفاع الهائل للعاطفة إلى موجة من التأثير المشحون بالتأكيدات الدرامية مفادها أنّ هناك هجوماً على الحرية والديمقراطية والإبداع. لم يقتصر الأمر على الغضب والاشمئزاز من المهاجمين، ولكن أيضاً سادت حالة من التماثل مع الضحايا، ليظهر شعار «أنا شارلي» بصفته الرد الطبيعي الوحيد. ترك هذا مجالاً ضيقاً للتفكير والكتابة حول عمل «شارلي إيبدو» نفسها: هل محتواها عنصري ومعادٍ للإسلام ومستشرق ومتحيّز جنساني ويحمل فكراً استعمارياً أم لا؟

سخرية تخاف القوي

يتم تقديم «شارلي إيبدو» على أنّها تمثل حرية التعبير كقيمة مركزية فرنسية وأوروبية و«غربية» تعتمد عليها جميع الثقافات الأخرى، ومن ناحية أخرى، يتم تقديم الإسلام و«المسلمين» (سواء بشكل مباشر أو ضمني) وغيرهم من الأشخاص الملوّنين والمهاجرين وشباب الضواحي الفقيرة، على أنهم عدو أساسي غير متمايز وغير إنساني وعنيف ومتعصّب ورافض لقيم الغرب التحررية. وكان هُناك دائماً ربط يساري (وربما يميني) بأن السُخرية ممارسة تهدف إلى هدم السلطة. لكن في الواقع، ومع الممارسة التي تقوم بها «شارلي إيبدو»، تظهر السخرية بوصفها فعل سُلطة.

تحول رسم «شارلي إيبدو» إلى تمرين سُلطة تدّعي التفوق الأخلاقي والقيمي، وبالتالي تستهدف سخريتها الضعيف دوماً. في الواقع، تبريرات المجلة حول رسومها عن المسلمين والملوّنين وغيرهم، تُخالف قاعدة أنّ «ما يُضحك لا يحتاج إلى تفسير»، لكن في الوقت نفسه تأكد شيء آخر تاريخي، هو أن السخرية منذ الآف السنين وقفت إلى جانب الطرف الأقوى الذي يمكن الاعتماد عليه، والأخلاقي واللائق الوحيد. ترك هذا مجالاً ضيقاً للتفكير والكتابة حول عمل «شارلي إيبدو» نفسها: هل محتواها عنصري ومعادٍ للإسلام ومستشرق ومتحيّز جنساني ويحمل فكراً استعمارياً أم لا؟

سخرية تخاف القوي

يتم تقديم «شارلي إيبدو» على أنّها تمثل حرية التعبير كقيمة مركزية فرنسية وأوروبية و«غربية» تعتمد عليها جميع الثقافات الأخرى، ومن ناحية أخرى، يتم تقديم الإسلام و«المسلمين» (سواء بشكل مباشر أو ضمني) وغيرهم من الأشخاص الملوّنين والمهاجرين وشباب الضواحي الفقيرة، على أنهم عدو أساسي غير متمايز وغير إنساني وعنيف ومتعصّب ورافض لقيم الغرب التحررية. وكان هُناك دائماً ربط يساري (وربما يميني) بأن السُخرية ممارسة تهدف إلى هدم السلطة. لكن في الواقع، ومع الممارسة التي تقوم بها «شارلي إيبدو»، تظهر السخرية بوصفها فعل سُلطة.

تحول رسم «شارلي إيبدو» إلى تمرين سُلطة تدّعي التفوق الأخلاقي والقيمي، وبالتالي تستهدف سخريتها الضعيف دوماً. في الواقع، تبريرات المجلة حول رسومها عن المسلمين والملوّنين وغيرهم، تُخالف قاعدة أنّ «ما يُضحك لا يحتاج إلى تفسير»، لكن في الوقت نفسه تأكد شيء آخر تاريخي، هو أن السخرية منذ الآف السنين وقفت إلى جانب الطرف الأقوى الذي يمكن الاعتماد عليه، أي مع السلطة. لم تتجرد المجلة من ميراث الاستعمار الاستبدادي، وخبثه غير العنيف، حيث تستدعي الرسومات الأخيرة تعليقات فرويد المختصرة حول السخرية كشكل من أشكال المزاح «المغرض». فالدافع الأخلاقي للسخرية لا ينفصل، في هذه الحالة، عن دافعها السادي.

يستمر تقديم الحجج لدعم استخدام «شارلي إيبدو» للصور التي تعيد تعبئة الصور النمطية الاستعمارية العنصرية: المسلمون والعرب المدجّجون بالسلاح والبجلات قصيرة، ورجال ونساء ملوّنون باجساد قرود. فالتحصل واضح من ارتباط صور مماثلة بما يُطلق عليه «عوالم الموت» للمستعمرة وما بعد الاستعمار، حيث يتم التحصل من العرق والعنصرية والمستعمرة وما بعدها في سياق فرنسي وأوروبي أوسع. وهذا التحصل هو أمر جوهري في تخيل الجمهورية الفرنسية. هذه النظرة الأسطورية للجمهورية تعتمد في الوقت نفسه على المنطق الثنائي الذي هو أيضاً جوهري في ميراث التنوير وتمايزه الجنساني والعرقي بين الذات/ الآخر: التناقضات الثنائية المألوفة الآن بين العالمية والخصوصية، والاستيعاب والاختلاف، والمواطن والذات، والحضارة والهمجية، والعلمانية والدين، والعام والخاص، والفرد والجماعة. هذا المنطق يدعم الجمهورية، والمثل التحررية المزعومة تعمل على إنكار العنصرية الاستعمارية المعتمدة على الانتماء القومي.

ولتأطير «شارلي إيبدو» وتحليل منهجها، يجب فهم الإيديولوجية التي يقوم عليها الاستعمار الفرنسي، إذ إنّها تلعب دوراً رئيساً في الإمبريالية الفرنسية والبناء الجمهوري للمواضيع الاستعمارية. انبثقت ما تسمى «المهمة الحضارية» للدولة الفرنسية من الإطار الجمهوري الذي تطورت من خلاله النزعة التوسعية الفرنسية نفسها. وجد الاستعمار الفرنسي دعمه في مصدرين: مصدر محافظ وآخر إنساني. يعتقد المحافظون المؤيدون للاستعمار أن الناس من المناطق المستعمرة، يجب أن يتحولوا إلى رعايا مستعمرين. وبالتالي، يجب معاملة الناس من المناطق المستعمرة على أنهم أقل شأناً من المستعمرين البيض. هدف فرنسا لم يكن تحقيق المساواة، بل فرض هيمنتها بحيث يصبح عدم المساواة قانوناً اجتماعياً في البلدان المستعمرة. في المقابل، غالباً ما تم تقديم الاستعمار الفرنسي على أنه استثناء ضمن المشاريع الاستعمارية الأوروبية بسبب «النزعة الإنسانية» للجمهورية. عملت الأخيرة على دمقرطة النظام المدرسي، والسيطرة على الصحافة. وشهد عام 1932 خلال مؤتمر في فينسي بعنوان «الاستعمار وحقوق الإنسان»، إعلاناً عن تنقية الاستعمار ليصبح مُفيداً، فرنسا الحديثة تمثل نموذجاً يجب أن ينتشر في جميع أنحاء العالم. لم تكن هذه الخطابات مجرد معارك خطابية، لكنها دعمت الأنظمة الفرنسية في أفريقيا وآسيا. وهكذا، إذا لم تكن مثالية الجمهورية الفرنسية حقيقية، فإن تأثيرها على الموضوعات المستعمَرة كان شديداً إلى حدّ كبير.

الآن، تختلف الإمبريالية والاستعمار الجديد الفرنسيان عن مظاهرهما في الماضي، لكن من المهم إدراك الصلة المستمرة بين الإمبريالية والعنصرية الفرنسية كما تُجسدها رسومات «شارلي إيبدو»، حيث لم يكن «الاتحاد المقدس» الذي أراده الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا هولاند مجرد اتحاد داخلي، بل كان أيضاً تحالفاً بين الدول الغربية من أجل محاربة العدو من الداخل والخارج. يسهل تحديد العدو من الخارج: «داعش» هو الهدف الرئيس، وتُعتبر الخسائر المدنية من حملات قصف التحالف في جميع أنحاء الشرق الأوسط ثمناً ضرورياً لحماية الجمهورية. لكن يصعب تحديد «العدو في الداخل». مع ادّعاء «داعش» أنها منظمة دولية لها «جنود» منتشرون في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك فرنسا، يصبح كل عربي أو مسلم أو مُلوّن مشتبهاً به محتملاً، وهو، على المستوى الإيديولوجي على الأقل، مؤيد للإرهاب.

كما تفعل ضد العدو من الخارج، تستخدم الدولة الفرنسية جهاز الدولة الإيديولوجي والقمعي ضد هذا «الطابور الخامس». لذلك، لا يكفي لشخص عربي أو مسلم في فرنسا ألّا يبايع «داعش»، بل يجب أن يبايع الجمهورية إذا كان يأمل أن يتبرّأ من الشبهات. وهكذا، تهيّأ مناخ صعود الإسلاموفوبيا وكراهية الآخر وتأطيرهما في نموذج معرفي مقبول مثل «شارلي إيبدو» التي تُصبح محصّنة من النقد بسبب رغبة المُختلف/ الآخر في دفع تهمة الإرهاب عنه.

حداثة التطرف المعكوس

في ظل الحداثة الاستعمارية، كما ورثنا منطقها في نظام العلاقات العالمية الذي يعطي شكلاً لعالمنا اليوم، كان للغرب امتياز رسم العالم وإعادة تشكيله لاختراق الآخر بشكل غير متكافئ كما يشاء. هذا المنطق المتأصّل بعمق في الهياكل والهويات والقصص والرسومات الغربية، يتعرض الآن لضغوط داخل الغرب من تيارات الهجرة الجديدة والهويات العالمية الجديدة الوسيطة. إن صعود الحركات الشعبوية المعادية للأجانب والقومية في جميع أنحاء أوروبا هي وسائل لمقاومة كبيرة لمثل هذه التطورات.

إنّ «شارلي إيبدو» وما تُعبّر عنه هي حالة تظهر ما يحدث عند دمج النظام العالمي داخل دولة قومية. لقد أصبحت فرنسا في الواقع متعدّدة الجنسيات. مع ذلك، فهُناك تنام مُتزايد لتيارات سياسية وفكرية داخلها ترغب في العودة إلى حالة الدولة القومية، ما يعني تناقضاً هيكلياً مفاده أن المجتمعات الغربية تواجه الآن خياراً وجودياً يتمثل في التخلي عن العناصر المحددة لديمقراطياتها (المعولة)، ولا سيما المساواة والتنوع الشامل أو بدلاً من ذلك، التخلي عن تخيّلاتها عن الوحدة (الوطنية) النقية.

في ظل العولمة، لا فرق جوهرياً أو أساسياً بين العنف الديني والعلماني. التفرقة بينهما جاءت متأخرة تم تشكيلها عبر تأويلات استعمارية، حيث لا تعتبر وجهات النظر السياسية العقائدية المطلقة علامةً على الدين، بقدر ما هي مُسيّسة بشكل مكثف، تعبّر عن صراعات استقطابية تتم فيها تعبئة أطراف مختلفة بحجّة أن أساليب حياتها ومستقبلها الوجودي معرّضان للخطر. لغة هذه التعبئة قد تكون دينية، أو علمانية أيضاً. تؤكد هذه السيولة والتبادلية أن الحاسم هو الجانب الوجودي للتعبئة السياسية، لا الديني. ميل العولمة إلى تحويل السياسة إلى مسألة إيديولوجيات وأساليب حياة متضاربة، هو ما يجعل استهداف الدين مفيداً للغاية، لا العكس. لذا، فـ«شارلي إيبدو» هي المقابل العلماني المتطرف من نظيره الديني المتطرف الذي تدّعي المجلة نقده. يمكن تفكيك تطرف «شارلي إيبدو» عبر تحليل بنية العلاقات العالمية التي ورثناها عن الحداثة الاستهلاكية العلمانية، ولكن لأنّ آخر قد يعرض فكرة أساسية للخطر مفادها أن للغرب وحده الحق في صنع التاريخ، وتحديد الهياكل الجغرافية، والحكم على شعوب العالم والذهاب «إلى الشرق» مع تقييد حقه في المجيء «إلى الغرب».

جمهورية مازومة

في فرنسا، ساعدت المعركة ضد الرقابة الدينية على إحياء فكرة حساب المجيد عندما كانت النسخة الخيالية للأمة طليعة التحرر وحروبهم وسوء حظهم من خلال تفسيرات ثقافية. إن موقف «شارلي إيبدو» المتطرف من الآخر ليس الخوف على الديمقراطية وحرية الرأي والتعبير وسيادة القانون والتنظيم السياسي والثقافة الاستهلاكية العلمانية، ولكن لأنّ الآخر قد يعرض فكرة أساسية للخطر مفادها أن للغرب وحده الحق في صنع التاريخ، وتحديد الهياكل الجغرافية، والحكم على شعوب العالم والذهاب «إلى الشرق» مع تقييد حقه في المجيء «إلى الغرب».

> **تستدعي الرسومات الأخيرة تعليقات فرويد حول السخرية كشكل من أشكال المزاح «المغرض»**

جمهورية مازومة

في فرنسا، ساعدت المعركة ضد الرقابة الدينية على إحياء فكرة حساب المجيد عندما كانت النسخة الخيالية للأمة طليعة التحرر ينتهك من الناحية الهيكلية مُثله وقيمه الأساسية في الخارج، وفي الوقت نفسه يسعى إلى منع غالبية شعوب العالم التي تعيش في ظل ظروف الاستغلال والضعف والقمع من القدوم إلى الغرب للهروب من مثل هذه الظروف)، احتواء التوترات التي ينتجها هذا الغرب من خلال الروايات والأطر والحساسيات التي تعمل على تطبيع اللامساواة العالمية، وتلقي اللوم بانتظام على فقراء العالم بسبب فقرهم والدفاع عنها علاقة كبيرة بحرية التعبير؛ لقد كان هجوماً آخر على الإسلام وأي شخص مرتبط بالدين من بعيد.

لن تنشر أي صحيفة كبرى رسوماً تسخر من المكفوفين أو الأقزام أو المثليين أو الغجر، لأنهم يخشون الذوق السيّئ أكثر من خوفهم من الملاحقات القانونية المحتملة. لكن لا يبدو أن الذوق السيّئ يمثل مشكلة مع الإسلام، لأن الرأي العام أكثر قابلية للاختراق من الإسلاموفوبيا (غالباً ما يختبئ وراء رفض الهجرة). ويمكن للمرء أن يلقي نكاتاً عن المسلمين لن تُطلق على الآخرين.

ادّعى أنصار المجلة أن السُخرية تنال من جميع الأديان، لكنهم فشلوا في الاعتراف بعجز وضعف المُستهدف، وجاء التأثير المحتمل على المسلمين والمجتمعات الإسلامية في وقت تتنامى فيه الإسلاموفوبيا والكراهية ضد المسلمين في المجال السياسي ووسائل الإعلام والمجتمع المدني. وهذا هو السياق الذي أفسح المجال لقوة وشعبية الرسومات وقدّم تأطيراً جاهزاً واستجابة لخطاب «الإسلام مقابل القيم الليبرالية الغربية/ حرية التعبير». إن معنى الحرية والعلمانية في فرنسا، كما في رسومات «شارلي إيبدو»، قد أصبح مشوّهاً بعمل كتّفنيات عنصرية واضحة للاقصاء والعقاب. تقنيات تستهدف الآخرين الذين يشعرون بشكل مُتزايد أن العولمة وقيم التنوير ما هما إلا كذبة تخدم فقط القمع، والمشكلة تكمن في جعل الشمولية إثنية.

ترجمة

بول فانسنسيني: لا أرى سواها

ولد الشاعر الفرنسي بول فانسنسيني عام 1930 في مدينة Bessans (منطقة السافوا) وتوفي عام 1985 في مدينة أرديش. عمل مدرّساً للغتين الفرنسية والإيطالية، وكان من دعاة الاحتفاء بالشعر في فرنسا. أسهم في تنظيم تظاهرات وعروض ومهرجانات شعرية وكان من مؤسسي «بيت الشعر» في أفينيون و«نادي القصيدة»، وعمل على تقريب الشعر من الذائقة العامة للجمهور المتلقي. وبذلك، بسّط المتطلّبات الشكلية للنص الموزون، ليصل إلى التلاميذ وسائر فئات المجتمع. عُدّ من مهندسي الشعرية الكئيبة والساخرة في آن، التي تخفي تراجيديا الكائن البشري. وضعه بعض النقاد في مرتبة بوريس فيان، وريمون كونو. كانت منزلته الأدبية تضاهي تلك التي ميّز بها سجل الأدب الفرنسي جان تارديو الذي كان شغوفاً بصَفّ الكلمات في انسجام ذهني ووجداني يتماشى مع ولعه الغريب باللغة وكان يردد من دون كلل: «كيف يمكن كتابة شيء ذي معنى؟». اكتشف بول فانسنسيني الشعر عبر قصائد آلان بورن صاحب ديوان «قبلة الكلمات: قصائد غير منشورة»، وامتدت صداقتهما سنوات مديدة حتى رحيل بورن، وقد تولى فانسنسيني جمع أعمال هذا الأخير وأعاد طباعتها وفاءً منه لـ «أستاذه في فنّ الشعر». ترك فانسنسيني دواوين شعرية ونصاً نثرياً ومسرحيتين: «لعبة الكركيت الصغيرة»، و«سلال للصم»، و«الساق التي تغني»، و«العشب الأسود»، و«أرشيفيّ الريح»، و«دائماً وأبداً»، و«أزرق وظلّ». امتاز بنصوصه القصيرة. وكان يكتب محتذياً بكتّاب اللغة الكورسيكية، كما لا يخلو شعره من تمازج بين الأسى والحنين والصور الشعرية الخاطفة، كأنما يستخرج نصوصه من قفاز مليء بعبارات تتلبسها روح الشعر الشيطانية. وبين المنطوق والخيال كان يؤسس لسذاجة وبساطة ماكرتين تحملان تصوراً جمالياً لفن الكتابة، شبيهاً بمن يحرك بهدوء عاصفة من الومضات الخاطفة التي تترك أثرها مثل لمع برق عابر في طريق من يقرأها.

تقديم وترجمة **بثينة الزغلامي**

1. الظل أزرق

هذه الطريق الزرقاء
في الظلال
كانت جميلة جداً
حتى أنني احتفظت بك
منها للذكرى.

2. الرقة

يبقى أن نعرف
أيهما أكثر رقة
أيهما لن يأكل الآخر.

3. ريح

الريح وحدها تصنع
ما هي عليه
وما تشاء
الريح التي تاجرت في المزاد
بالعشب الأخضر
والحجارة المحترقة.

4. احبها ومع ذلك تؤلمني

حين أكون ميتاً
أظنني ساظل أتذكر
حساء القنّبيط.

5. نصر

كان نحو اللاشيء
قد مددت يدي
منذ عشرين عاماً
لكنه الآن يأتي
ويمسك بيدي ضاحكاً.

6. أنا دوماً أخاف الريح

ها أنا جيوبي محشوة بالحصى
لأبقى معك
ولا أطير في الشجر.

7. السماء كاملة

الطائر وحده
له كل السماء
ليتمدد في الاتجاهات جميعاً.

8. سلالٌ للصُّم

لم أعاود رؤية الطفل الصامت أبداً
ذلك الذي يغسل عينيه ليلاً في الأنهار
لم أره مرة أخرى وصديقته الحجارة
لم تقل لي شيئاً بنبرة خافتة
إنه قريب من البحر
لقد اقتلع عينيه
وهو يخرج ليلاً في الفسحات
وينسج من جفونه للصم سلالاً.

9. كلمة-جزيرة

كلمة سقطت في البحر
لم تحدث ضجيجاً
لكنني أعرف أنها تكبر
وهي تنمو في ليلي
وأنني سأمضي يوماً إلى جزيرتي
متخفياً وحيداً
دون أخذ القارب.

10. من العشب الأسود..

من العشب الأسود
قطفت الأزهار لعبور البحر
لكنني نمت قرب البركة
بين الخيل
وكان الحب يسجن باقة عشبي السوداء
وأنا الآن مستلق على الرمال
ولن أرحل
فأنا أعمى صغير
ولي غروب شمس باكمله
فوق رجليّ.

11. سلال للصم 2

أرى امرأة الرماد
تهبط الدرج القديم
شفتها ممزقة
وأحلامها بلون باقة أزهارها الذابلة
يتسلق السلم وهو يغني بذاءات
ولا يرى امرأة الرماد.
الدرج والرجل القوي وامرأة الرماد
في المنزل الذي لم أغادره قط.
ليلة صغيرة

12. عندما يحل الظلام..

عندما يحل الظلام
يأخذ الليل نفسه بين ذراعيه
وينام على كتفه
مثل ليلك.
محصول
في حقل قمح
يتقدم شعر
يشبهه
التي تحمله
عيونها فقط على العصافير
وأنا
لا أرى سواها.

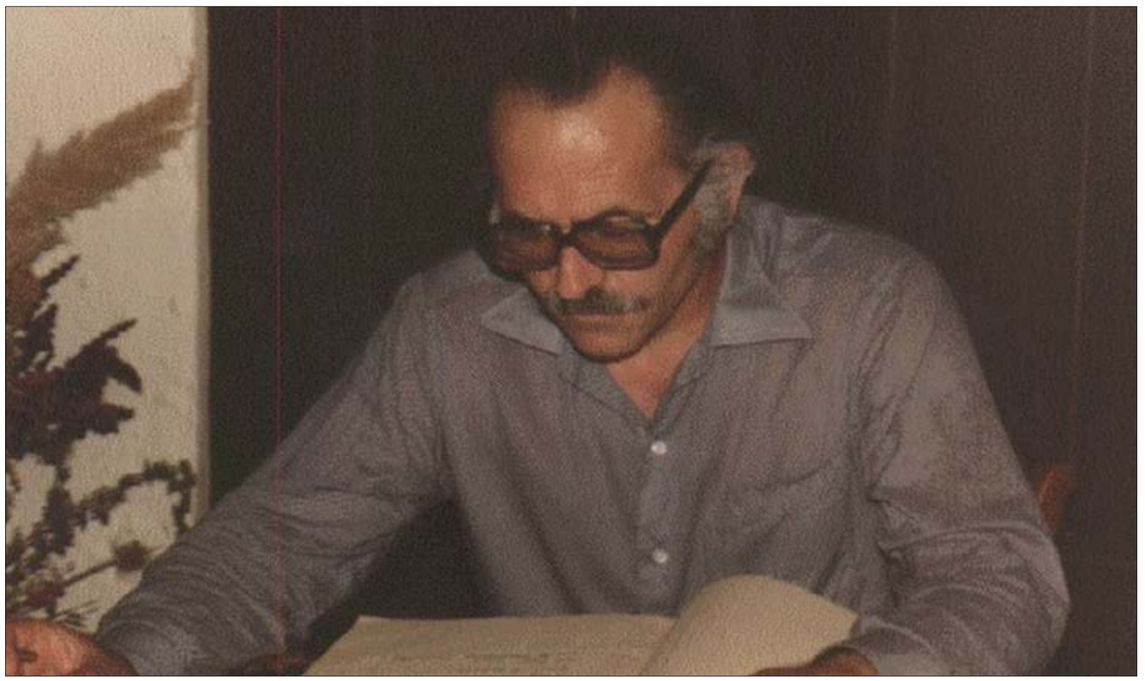

نصوص

بابةُ الجزائرية ــ «الجميلةُ في بيتها الجميل» (زيت على قماش، 1947).

السّير في جنازة مملّة

أسماء جزائري *

1. مدينة الأفندة

الحياة في هذه المدينة ليست مُتاحة كثيراً، طرقها طويلة وملتوية، يُمكنك الوصول إلى أيّ مكان تريده، هذا ما سيبدو لك بدايةً، لكنّ معرفة عكس ذلك تحتاجُ إلى حالة خاصّة تُحاصرك فيها ثوانيها، أو لعلّه ذلك الوقت الضيّق الذي تُريد فيه أن تصل بسرعة إلى مكان ما، فعلى غير المدن الأخرى، في هذه المدينة غاب الاهتمام بعبُور الطُرق المُختصرة، طريقٌ تجعلك تَصلُ في الموعد، إذ لا توجد بها محاولة باءت بالنَجاح، فإن تأخّرتَ في البيت أو المقهى أو العمل عن موعدٍ ما، فإنّك قد تأخّرتَ فعلاً، لن تخرج مسرعاً إلا من مكانك إلى الشارع، بعدها ستتصلُ في الوقت الذي تحدّده المدينة، كأنّها تقود سكّانها إلى مكان ما يتفادونه، فالأحياء مُغلقة في نهايتها، والكلّ يدخل ويخرج من نفس الشارع الأفعواني المُحيط بعمرانها، الشّارع الوحيد الذي يُمكنك استخدامه لاختصار تلك المسافات غير متاح، فالنّاس حينما يعبرونه يودّعون بعضهم، كأنّه على هيئة بالوعة في وسط المدينة، وكنتُ كلّما مررت بمحاذاة مدخله أقفُ وكأنني أريد أن أجرّب تلك المُخاطرة، عشتُ سنوات كثيرة أنتظر وضعاً مستعجلاً يجعلني لا أبالي بأن أحيا أو أموت، وتكون فيه المُخاطرة هي كلّ ما أريد، ربّما الحبّ، قلت بيني وبين نفسي، هو الشّيء الذي يستحقّ أن نخرُج منه قتلى، لكنّني أصاب بنوبة ضحك بعدها، هل يمكن للحبّ أن يحمل كلّ هذه الجرأة على ارتكاب الجرائم، البارحة مررنا أنا وهو من شارع المدينة الخطير هذا، يُقال إنّه قلّما يخرج أحد منه من دون رصاصة في الصّدر، شارع الحبّ الذي لا تعود منه، فالمدينة كلّها مغلقة مثل حقيبة مكتظّة خنقتها كثرة الثياب، وكان عليّ الوصول إلى المستشفى في الموعد، هناك مريضٌ يحتاج إلى عملية قلب مفتوح وأنا عالقة داخل حياة أجرة أودّ اللحاق به قبل أن تتدهور حالته وأخسر نفسي في مدينة تبدأ الآن بالتضييق عليّ، كأنّ موعدي لعبور ذلك الزّقاق قد حان، هو في الطرف الآخر من الشارع، نزل من سيارته أيضاً، سلك الطريق نفسها مضطراً حتّى يصل إلى زبون وعده بأن يحصل من خلاله على فرجة قلبه في الموعد، كان مفلساً للغاية وكانت تلك فرصته الأخيرة ليجد حياة تملؤها المشاعر الخلّابة، كنت خائفة كثيراً حينما رأيتهُ قادماً مسرعاً نحوي من هناك، هو أيضاً ارتبك حينما سمع صوت كعبي العالي مسرعاً على البلاط، لم نقصد إيذاء بعضنا في هذا المكان المعتم للغاية، كنّا نريدُ العبور فحسب من دون أن نُلفت انتباه بعضنا، لكنّ الزّقاق كان ضيّقاً، ولو مررنا جنباً إلى جنب للامس وجهانا وصدرانا بعضهما، ولامست أيادينا بعضها، كانت قلوبنا تلاحقُ بعضها أيضاً، والآن، أخرجت مسدساتها وتبادلت إطلاق النّار، لم ترغب في حُدوث هذه الكارثة، لكن هكذا يبدأ الحبّ في مدينة الأفدة بإطلاق النّار نحو صدرنا ونحن نُحاول اللحاق بشيء نكاد نخسره..

2. العيش كمنديل

وُلدت بعد أن فقد أهلي طفلهم ذا الأربعة أشهر، جئتُ بعد جنازة مريرة، وككلّ الأسر التي تُحاول التّخلص من حزن موت أطفالها بإنجاب طفل آخر تضع فيه كلّ حبها أو تهزم فيه حزنها الذي لا يُستطاع بلعه بالأعياد أو باختراع المناسبات السّعيدة العابرة، قرروا تعويضه ببديل يقرغون فيه عواطفهم الكبيرة، حاصرُوني بحبّ لا يعنيني منذ اللّيلة الأولى التي نمت فيها سويّة، ثم اعتنيا بي وهما يتقلان إليّ الأطعمة الجيدة عن طريق الحبل السريّ في الرّحم، راقباني وهو ينتفخ مجدداً معلناً قدومه في جسدي البديل، ولدتُ كمنديل أو كطريقة لاستعادة ما أُخِذَ منهما بالقوّة، تقول والدتي إنّها بكت من دون توقّف وإن حليبها الغزير محرقٌ وإنّ والدي انهار على قدميه تحت كتلة صغيرة وخارت من الحزن قواه، بكى مثل ذئب جريح حتّى أحضروا له من قبر أخي حفنة تراب ومسحوا بها عليّ وجهه، وفوق ظهره، لا أعلم إن كان ذلك مفيداً له لكنّه هدأ وبدأ يستقيم وينهض من عوائه على أربع قوائم، أختي الكبرى كانت طفلة بريئة، بكت هي الأخرى على طريقتها الخاصّة، إذ كانت تتسحّب من البيت ثمّ تنطلق كرصاصة نحو بيت عمّي، بكت أختي أمام بابهم كثيراً وطالبتهم برؤية أخيها، بكت لأنّها ظلت تظنّ أن الطفل الصغير في بيتهم هو أخوها الذي أُخِذَ منها بتلك الطريقة، الموت أكبر من أن يُفهم بالنسبة إلى طفلة صغيرة مثلها ومع هذا كسروا عينها وأخبروها أنّ أخاها مات، ولدتُ بعد أن فقد أهلي طفلهم ذا الأربعة أشهر، جئت بعد أن استدارت بطن أمّي جيّداً وهي تفكّر في عودة ابنها بهذه الطّريقة، أغمضَ عينيه فجأة وبعدها بسنة فتحهما في عينيّ من جديد، واليوم أحاول الاعتياد على العيش داخل أعينهم كلافتة تشير إلى مكانه وهي نفسها منسيّة!

3. اختلاف

كان خبر وفاتها مثل اصطدام كوكبين، وعليه اختلّ توازن العالم، كيف للحياة أن تعُود مجدداً بعد ذلك الانفجار؟ لم أحتمل فكرة أن يصغُر حزني، فقد سمعت جدّتي تردّد بينها وبين جارتها التي جاءت لتعزيها قائلة: — كلّ شيء يبدأ صغيراً ويكبُر، إلا الحزن يبدأ كبيراً ثم يصغُر إلى أن يتلاشى، قاومته بأن توقّفت عن مُمارسة كلّ ما يلهيني عنه، مضت 17 سنة على ذلك الحزن لكنّه بقي نديّاً تفُوح منه دائماً رائحة النّعاسة، بيتٌ ميت، سُكانه أشباح، وكان جلب ثيابها إلى الغُرفة كافٍ لكرهي للألوان، ارتداؤها وقت النّوم ساعدني على السّهر الطويل، فقد زاد من صحوي وبكائي المخنُوق تحت الشراشف — ستموت من الحزن، قالت زوجة عمّي لوالدي، إن لم تخرج من هذه الحالة، عمّ حزن مضاعف في البيت، ترك والدي حزنه على زوجته منذ زمن بعيد لكنّني لم ألاحظه، كنت أراه حزيناً – مثلي - على المرأة ذاتها، لكن حزنه تفاقم عليّ أيضاً، لم يعد ينام هو الآخر، أسمعُه يتجوّل أمام بابِ غُرفتي، يقترب إلى أن يدخل ظلّه الغرفة بينما ينتظر هو بجسده النُحيل خارجاً، يُطيل بقاءه على هذه الحال لدرجة ينتابني فيها رعب شديد. — سيموت أبي حزناً عليّ أيضاً، قلت لنفسي، وحتى لا يحدث هذا كان عليّ أن أجد طريقة للتّجاوز كما يفعل الآخرون حينما يدفنُون أحبّتهم، فكّرت في اختلاق آمّ، إنها أمّي طبعاً، لكنّها لم تعد تأتي إلى البيت منذ 17 سنة، فحينما يموتُ أحدهم في العالم تحبل امرأة ما في نفس هذا العالم؛ هكذا اختيَل معنى الاختفاء، أن ندخل أحدهم داخل حُفرة، فينمو في مكان آخر مثل شجرة معمّرة، اختيَل أمي وقد بلغت الآن 17 سنة في عائلة أخرى، اختيَلها لا زالت تحبّ الشعر وأنّها مقبلة على شهادة البكالوريا، أنّها عاشقة صلبة، ورغم ذلك تُرسل ما اكتبه عن الحبّ إلى حبيبها كلّ ليلة، أمّي بشعرها الأشقر وعيونها الواسعة تجلسُ يومياً أمام جهازها تتصفّح صفحتي الفايسبوكية وحينما لا أظهر تترك رسالة في بريدي: — هل تسمحين لي بمناداتك أمّي؟

4. وقت مؤقّت

انفصلنا مؤقتاً، قُلنا، حتى نعُود إلى بعضنا أقوى،
أن نحرم أنفسنا منّا لنستعيد حبّنا بالكامل،
ها قد مرّت عشر سنوات،
أنجبتُ فيها طفلين وأصبح لديك ابنة بعمر التاسعة،
وفي انتظار عودتنا إلى بعضنا،
عشنا حياتنا، ونسينا أنّها مجرّد وقت مؤقّت..

* جيجل/ الجزائر

قصة قصيرة

ماذا يحدثُ اليوم، أيها الكون الكبير؟

أماني أحمد *

أسمعُ ضجيج الموسيقى ولا أفهمُ شيئاً، إلّا أنّ شهوة الجمال في داخلي تلتقطُ سرّ الألحان بسحرٍ رهيب...
أصفّق بيديَّ الصّغيرتَين كما رأيتُ الطفل الصغير يفعلُ في التلفاز... أشعر بالبرد الشديد وبالحاجة إلى أحضان اعتدتها يوميّاً ولكنّني لم أرَها اليوم... حتى طبقُ الطعام الذي جاءني اليومَ كان طعمه مختلفاً كليّاً: ثمّة نكهةٌ من الحب والعطاء غير موجودة فيه...
ما الذي يحدث اليوم أيها الكون الكبير؟
تزور الحرارة جسمي فجأةً فأبكي، ولكنّ المرأة أمامي لا تلقي إليّ بالاً، وتبقى منشغلة بشيء صغير لا أعرفه تحمله بين يديها. أحسُّ بخيبة الأمل لأنّ هُناك في هذا الكون الكبير ما هو أصغر منّي ويحتاج أكثر منّي إلى الاهتمام. أبكي حتّى أشعر بالتعب، فتنتشلني يدٌ خشنةٌ أحسُّ بقساوتها. ترفعني عن الأرض بشدّة وهي تتمتم بكلماتٍ متذمّرة غير مفهومة...
سابقاً، لم أكن أشعر بالوقت. كان اليوم يمرّ عليّ بخفة النسيم وطلاقة فراشةٍ حرّة تسبحُ في هذا الوجود...
فما الذي يحدث اليوم أيها الكون الكبير؟
أشعر أنّ عمري صار مئة عام... لا أستطيع التمييز بين الضوء والظلام... هُناك حلقةٌ مفقودةٌ في داخلي... صوتٌ أفتقدُ سماعَه... رائحةٌ تُشبه رائحة الطعام الذي أحبّه جدّاً مُغيّبة عن أنفاسي هذا النهار!
فجأةً أشعر وكأنّني نهضتُ من سباتٍ عميق... ضجيج أولادٍ ينبعثُ من المكان الذي أنا فيه...
كثيرون يُشبهونني هنا ولستُ وحيداً... يغريني المشهدُ كثيراً فترتسم بسمةٌ بريئة على شفتيَّ الصغيرتين، لكنّ صوتاً غضوباً يلعلع في القاعة يقطع سحر ابتسامتي، وتخفّيها تماماً كفّ ضخمة تضربُ خدّ طفلةٍ وجهها كالقمر!
تزداد ضرباتُ قلبي شدّة... ويرقص الخوف في داخلي كما رقص الطفل الذي رأيته في التلفاز.
لا أجد مهرباً غير النوم. أغفو. أنام بعمقٍ لأوّل مرة منذ قدومي إلى هذه الحياة، ولكنّ عمق نومي ليس راحةً بل هُروب من عالمٍ مظلم مُخيف...
يطلع الصباحُ والوقت لم يسعفني كي أحظى بحضنٍ من أفتقدها... كي أستلذّ بسماع صوتها... كي تُسكرني ضحكاتها وتسقيني من شهد الأمومة الذي لا يُضاهيه شيء...
ها أنا مُجدّداً في تلك القاعة المزدحمة بالأطفال، إلّا أنّها تفتقدُ لبهجة الأطفال... ماما، اشتقتُ أن أكون طفلك!

* فريتاون/لبنان

خوسيه مانويل ميرزو ــ «طفولة» (زيت على قماش، 2007 ـ تفصيل)

توثيق

محمد شعير يستعيد «أعوام» نجيب محفوظ المجهولة

خليل صويلح

يرسم محمد شعير في كتابه التوثيقي «أعوام نجيب محفوظ: البدايات والنهايات» (دار الشروق) خريطة جينية أدبية لصاحب نوبل، لجهة العصر الذي ولد فيه، والمؤثرات التي صقلت شخصيته الأدبية والفلسفية، فتبرز أولاً شخصية طه حسين بوصفها البوصلة الأولى لصاحب «أولاد حارتنا». وإذا بقتى الثامنة عشرة يقتفي سيرة عميد الأدب العربي «الأيام» بسيرة موازية أسماها «الأعوام»، معتبراً إياها تمرينات على الكتابة. لكن هذه الكراسة ستختفي بين أوراق كثيرة إلى أن ظهرت في أحد مزادات لندن 2011، فتمكّن الصحافي المصري من الحصول على نسخة من الكنوز الضائعة التي تشتمل على مخطوطات بعض أعمال الروائي، وبينها نسخة من «الأعوام» (1929)، الكراسة التي ستضيء «سنوات تشكّل المفاهيم، وتشكّل ملامح الوعي الأولى».

يفتتح محمد شعير كتابه بمسح تاريخي لليوم الذي ولد فيه نجيب محفوظ (11 كانون الأول/ ديسمبر 1911). يوم شتوي عاصف، مثقل بالوقائع السياسية والمسرحية والأدبية، وهبوب ريح حداثة تحاول إقصاء التقاليد القديمة. وسيلفتنا سفر محمود مختار، أحد رواد التشكيل المصري للدراسة في باريس، وعلى المقلب الآخر، كان محمد حسين هيكل يضع اللمسات الأخيرة على روايته «زينب»، من دون أن يوقّعها باسمه مكتفياً باسم مستعار هو «مصري فلاح»، فكتابة الخيال حينذاك تشبه شمّ الكوكايين، وفقاً لتعبير محمود تيمور. وسط هذه المخاضات العسيرة للحداثة، ولد نجيب محفوظ. عدا طه حسين الذي كان معلمه الأول، سيتّكئ صاحب «الحرافيش» على سرديات عباس العقّاد، وسلامة موسى، فهؤلاء كانوا صنّاع النهضة الأدبية، من وجهة نظره. لذلك اقتفى أثرهم في نصوصه اللاحقة لجهة الأسلوب والنبرة الذاتية ومنهج التفكير العلمي، لكنه سيحتاج إلى وقتٍ طويل للاعتراف النقدي بمنجزه، إذ قرّر طه حسين متأخراً ربع قرن بأن يعترف بحضور نجيب محفوظ بقوله: «أبرع قاصّ صوّر البيئة الشعبية القاهرية».

في فحص تربة «الأعوام»، سيكتشف محمد شعير أباً آخر للكاتب الشاب، وهو مصطفى لطفي المنفلوطي، المرجع الأول في معجمه، ذلك أن تأثير صاحب «العبرات» كان جلياً في كتابة محفوظ، يكفي أنه قرأ «ماجدولين» نحو عشرين مرّة، كما سيحضر مراراً على لسان شخصياته الروائية سواء في «بداية ونهاية»، أو «المرايا»، وحتى «الثلاثية» بوصفه أباً روحياً لـ «شاعرية الحزن» التي وسمت ملامح ذلك الجيل. بعد «الأعوام» التي تنتمي إلى السيرة الذاتية بامتياز، سينأى صاحب «ثرثرة فوق النيل» عن أدب الاعترافات، خشية «مغامرة جنونية»، فكتابة الذات تقود إلى مهالك خطرة، وفق ما يقول، لكنها في المقابل ستصبح «مادة خام» للكتابة التخييلية، باستدعاء شخصيات حقيقية من محيطه وإعادة تدويرها على نحو آخر. إلا أنّ الحقيقي سينتصر على المتخيّل، مهما كان السرد مراوغاً (طارده أحد جيرانه معتقداً أنه يكتب عنه بوصفه بطلاً لرواية «السراب»). سنخشى شلّة «الحرافيش» أن يفضح نجيب محفوظ أسرارها الخفية في روايته الجزئية الصغيرة». ورغم أميّة الأم، إلا أنها كانت «مخزناً للثقافة الشعبية»، بترددها على مقام سيدنا الحسين، والمتحف المصري وتأمل المومياوات، والآثار القبطية. وستتقاطع صورتها مع شخصية «أمينة» في الثلاثية إلى حدّ ما.

كان نجيب محفوظ أهدى الأم وحدها الخيال الثري في تأثيث حكاياتها، وتالياً إثراء نصوصه بنماذج من عائلته وجيرانه بعجائن وخلائط سردية متباينة. والآن، كيف تشكّلت خريطة «النهايات»؟ سيقودنا كتاب «أصداء السيرة الذاتية» بوصفه نصّاً متأخراً ينطوي على تجربة مكتملة إلى ذات أخرى تجابه النسيان بالتذكّر، والحياة الصاخبة بانطفاء الشهد الجسد، والغرق بلغة صوفية في تفسير الزمن، متجاهلاً سيرة الذات والاكتفاء بروح السيرة، لأنه «يريد أن يكتب ذاته بالحبر السّري»، ومحو كل ما كان كاشفاً للذات، ذاهباً إلى الصدى لا الصوت، ومتقاطعاً مع أفكار الفلسفة الوجودية، إذ «لا معنى للذات خارج وجود الآخرين». لكن محفوظ هنا يسعى أن يرتدي جبّة المتصوّف لا أن يكون فيلسوفاً فاشلاً مثل بطله كمال عبد الجواد، ولا سيما أن صاحب «حديث الصباح والمساء» قد درس الفلسفة في شبابه متنقّلاً بين أفكار المعرّي والخيّام، وسبينوزا، وسارتر على نحو خاص، قبل أن يقرّر أن يكون روائياً، وها هو في سنواته الأخيرة يسطر أصداء سيرته بأسلوب مختلف يدعوه إدوارد سعيد «الأسلوب المتأخر» عن طريق «التنقيب في الماضي المدفون والمنسي». وإذا بالمسافة تطول بين «الأعوام»، و«أصداء السيرة الذاتية» في ما يخص مفهوم الزمن واللجوء إلى الكتابة الشذرية لاستبطان الجوهر، وخلخلة الأسلوب نحو جماليات جديدة. نظن أن محمد شعير في عمله الاستقصائي، سواء في هذا الكتاب، أو في «أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرّمة»، أو في «كتابات نوبة الحراسة: رسائل عبد الحكيم قاسم» يبتكر أفقاً وثائقياً مهماً بالمزج بين الوثيقة والقراءة النقدية العميقة لها، والاشتباك مع عصر نجيب محفوظ وسلالته التخييلية عن كثب، بالإضافة إلى فرادة التحديقة نحو ما هو مجهول في خزائن الكتابة الأدبية.

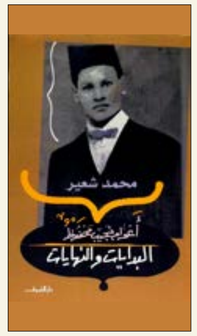

رغم أميّة الأم، إلا انها كانت «مخزناً للثقافة الشعبية»

اعترف مراراً أنها تتقاطع معه حيناً، وتختلف عنه طوراً، وبتعبير الناقد محمد بدوي «نفي ذاته من الكتابة وتمويهها»، فنراه مبثوثاً في معظم أقنعة شخصياته الروائية، إذ يتأرجح بين كمال عبد الجواد ووالده في أن واحد، والاشتغال على هدم الحكاية الأصلية وإعادة تركيبها، بذهابه إلى انعكاس الصورة في المرآة لا المرآة نفسها، عدا سيرة الطفولة التي بقيت ناصعة من دون تزويق، سواء في «الأعوام» أم في روايته اللاحقة. ففي «بين القصرين»، يتكرر مشهد الطفل وهو ينظر من شرفة المنزل إلى الحشود أثناء ثورة 1919، وكذلك منظر الجنود الإنكليز لحظة احتلال قسم الجمالية، وإذا بشخصية «كمال عبد الجواد» تنمو من فضاء الطفولة إلى مرحلة الوعي بمجازات مختلفة.

يلحظ محمد شعير في مراجعته لكراسة «الأعوام» غياب الأب، أو أنه لا يظهر إلا عابراً، وحين يحضر داخل النص سيكون دلالة على الخوف والرعب لدى الصبي. وستتواتر هذه الصورة المرتبكة بين الأب والابن في الثلاثية، على هيئة طاعة عمياء أو عقاب كمحصّلة لتمرّد الابن على بطريركية الأب. ينفي محفوظ الشبه بين والده وشخصية أحمد عبد الجواد، من دون أن ينكر صرامة وحزم والده، وضرورة الانتباه إلى الفرق بين عمل المؤرخ وتخيّلات الروائي في العمارة السردية. ستتوارى صورة الأب تدريجياً، سواء «بالموت أو العجز أو الاختفاء» كموقف نقدي من النظام الأبوي والعلم بجدّ على تقويض هيبته، إلى درجة التخلي عن اسم الأب في التوقيع على رواياته، مكتفياً باسمه الأول المركّب: نجيب محفوظ. ولكن ماذا بخصوص الأم؟ يجيب محمد شعير: «تظهر الأم في «الأعوام» بقوة، بل تكاد أن تكون بطلاً للنص ومركز الحكايات داخله. وتبقى حكاياتها بمثابة النبع الذي لا ينضب للذكريات والخبرات والصور، والمصدر الرئيسي لمادة الحياة الخام الذي يشكّل وعي الطفل بالحياة وبمفرداتها الجزئية الصغيرة». ورغم أميّة الأم، إلا أنها كانت «مخزناً للثقافة الشعبية»، بترددها على مقام سيدنا الحسين، والمتحف المصري وتأمل المومياوات، والآثار القبطية، وستتقاطع صورتها مع شخصية «أمينة» في الثلاثية إلى حدّ ما.

كان نجيب محفوظ أهدى الأم وحدها الخيال الثري في تأثيث حكاياتها، وتالياً إثراء نصوصه بنماذج من عائلته وجيرانه بعجائن وخلائط سردية متباينة. والآن، كيف تشكّلت خريطة «النهايات»؟ سيقودنا كتاب «أصداء السيرة الذاتية» بوصفه نصّاً متأخراً ينطوي على تجربة مكتملة إلى ذات أخرى تجابه النسيان بالتذكّر، والحياة الصاخبة بانطفاء الشهد الجسد، والغرق بلغة صوفية في تفسير الزمن، متجاهلاً سيرة الذات والاكتفاء بروح السيرة، لأنه «يريد أن يكتب ذاته بالحبر السّري»، ومحو كل ما كان كاشفاً للذات، ذاهباً إلى الصدى لا الصوت، ومتقاطعاً مع أفكار الفلسفة الوجودية، إذ «لا معنى للذات خارج وجود الآخرين». لكن محفوظ هنا يسعى أن يرتدي جبّة المتصوّف لا أن يكون فيلسوفاً فاشلاً مثل بطله كمال عبد الجواد، ولا سيما أن صاحب «حديث الصباح والمساء» قد درس الفلسفة في شبابه متنقّلاً بين أفكار المعرّي والخيّام، وسبينوزا، وسارتر على نحو خاص، قبل أن يقرّر أن يكون روائياً، وها هو في سنواته الأخيرة يسطر أصداء سيرته بأسلوب مختلف يدعوه إدوارد سعيد «الأسلوب المتأخر» عن طريق «التنقيب في الماضي المدفون والمنسي». وإذا بالمسافة تطول بين «الأعوام»، و«أصداء السيرة الذاتية» في ما يخص مفهوم الزمن واللجوء إلى الكتابة الشذرية لاستبطان الجوهر، وخلخلة الأسلوب نحو جماليات جديدة. نظن أن محمد شعير في عمله الاستقصائي، سواء في هذا الكتاب، أو في «أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرّمة»، أو في «كتابات نوبة الحراسة: رسائل عبد الحكيم قاسم» يبتكر أفقاً وثائقياً مهماً بالمزج بين الوثيقة والقراءة النقدية العميقة لها، والاشتباك مع عصر نجيب محفوظ وسلالته التخييلية عن كثب، بالإضافة إلى فرادة التحديقة نحو ما هو مجهول في خزائن الكتابة الأدبية.

رواية

إبراهيم نصرالله: هذه ليست سيرة

منير الحايك

كيف يمكن أن تكتُب سيرةً، سيرتكَ، ضمن القالب الأدبيّ الروائيّ، من دون الخوف من تصنيف العمل، فتلجأ إلى مسمّيات تخترعها كـ «سيرة أدبية» أو «رواية سيرية» أو غيرها، لتبرّر عدم التزامك بنوع السيرة؟ بكلّ بساطة، افعل ما فعله إبراهيم نصرالله، في روايته «طفولتي حتى الآن» (الدار العربية للعلوم ناشرون 2022) وسمّها «رواية»، لأنها ستكون رواية، واجعل القارئ يستمتع بأسلوبك ولغتك وسيرتك الممزوجة بالمتعة.

تبدأ الرواية برحلات يخترعها الطفل إبراهيم في مطاره الوهمي، إلى أيّ مدينة في العالم قد يحلم بها وتحلم بها نور، صديقته أو حبيبته أو شريكته أو أخته أو ملهمته... لا تطالعنا الرواية بذلك، بل تستمرّ في تعميق حالة الحبّ التي تجمع هذين الطفلين. وتستمرّ في القراءة، إلى الحدّ الذي يجعلك تعتقد بأنه كان على الكاتب أن يضع عنواناً لنصّه «قصّة نور»، ولكنّ شخصيات الرواية الكثيرة تقوم بالدفاع عن حضورها كلّما تعمّقت في القراءة أكثر. هي رواية طويلة (500 صفحة) صنّفها مؤلّفها ضمن سلسلة «الملهاة الفلسطينية» لا سلسلة «الشرفات». ومن يعرف نصرالله ويتابع مشروعه، يعرف كم هو حريص أثناء كتابة الملهاة على أن يضيء على تاريخ فلسطين، وتاريخ الفلسطيني في أرضه وتجذّره فيها، فمَن لا يعرف «قناديل ملك الجليل» و«زمن الخيول البيضاء» أو لم يسمع بهما؟

لماذا جاءت ضمن سلسلة «الملهاة الفلسطينية»؟ لأنها بكل بساطة تحكي قصّة فلسطينيين، عاشوا حياة فيها الكثير من تفاصيل الحياة العادية البسيطة، وكان الكاتب من بين هؤلاء، بين عائلته الصغيرة والكبيرة، وبين الجيران والأصحاب، وكان بينهم من يقوم بدور المدرّس والمقاوم، والقارئ والكاتب، والموسيقيّ والحالم، وليس أعمق من حالة الجَدّ، الذي وعدنا الكاتب برواية منفصلة عنه، وها هي تصدر بعنوان «شمس اليوم الثامن»، ذلك الجدّ، الذي أطلعتنا الرواية على قصّة حبّه التي لم تنتهِ إلا بموته، وأشعاره بالمحكية الفلسطينية، التي لم تكن شخصية الجدّ تتحدّث إلا بها، فلم نجده يقول كلمة واحدة إلا من خلال الشعر الشعبي.

أما الشخصية الأهم التي جاء حضورها في النصّ بالحضور نفسه لشخصية إبراهيم، الطفل الذي يريد أن يكون مثل كل من تأثّر بهم، فهي شخصية الأم التي أعطيت أكثر من لقبك «وزارة التربية والتعليم» ومن ثمّ «وزارة المالية». لم تكن إلّا صورة الأمّ الفلسطينية الحقيقية، التي حمت ما تبقّى لها من إرث، وهو الجيل الجديد، من خلال حرصها على متابعة تحصيله العلميّ والحياتيّ، والمفارقة أنها لم تحرص على أولادها فحسب، ولا على أبناء المخيّم، بل على نفسها أيضاً، فقد خاضت دورات محو الأمية وطوّرت معارفها، لتستطيع مواكبة ما يحضله الأبناء. وهنا تأتي الرمزية في أبهى صورها، فأمّ إبراهيم، وشقيقة محمود الشاعر والمقاوم، أنجبت فدوى لابنها إبراهيم، الذي ربط شاعريته واستمراريتها بأن يكون كإبراهيم طوقان، وعلى أمه أن تنجب له فدوى، لتكرّس الربط بين الحاضر ومتطلّباته، وبناء خطط المستقبل على أسس مدروسة، كما فعلت الأم هنا، إلا أن إصرار إبراهيم على فدوى، فدواه الخاصة، تأكيد على أنّ رمزية إبراهيم طوقان ودورها في مستقبل الأجيال الجديد، الحائر بين أن يكون شاعراً أو روائياً أو موسيقياً... تبقى الأعمق، فمع كلّ الكتب والكتّاب الغربيين الذين قرأ لهم ذلك الفتى، وهم من تذكرهم الرواية وتذكر أعمالهم بتفصيل أحياناً، يبقى حضور إبراهيم طوقان، مع شخصية فدوى الطفلة التي بدأت تكبر، ويرعاها إبراهيم أكثر من رعايته لنفسه، ورعاية أمها لها، لتؤكّد أن الأصل والتراث هما الأساس، الذي نملكه، وتملكه أمتنا ويملكه شعبنا، وما علينا سوى الاستمرار... وبالعودة إلى الأم، فهي التي جاءت في مقابل المؤسسات الحقيقية، التي فشلت في أن تواكب ما يتطلبه المستقبل، بأنها لم تقم بدورات محو الأمية التي كانت بحاجة إليها.

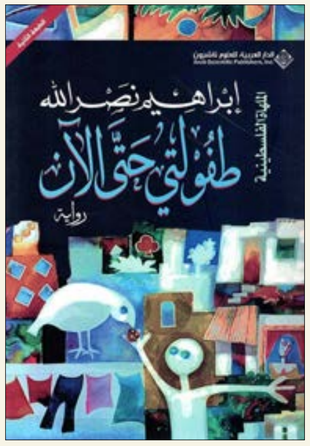

رواية طويلة صنّفها مؤلّفها ضمن سلسلة «الملهاة الفلسطينية»

لالتفت أنّ نور الحقيقية، قرأت ما كتبه صديقها طفولةً بعد أخرى، وهو الذي قسّم روايته إلى «طفولة أولى» و«طفولة ثانية»... وصولاً إلى الطفولة السابعة التي بقيت عنواناً ومعها تنتهي الرواية، تلك القراءة كانت في زمن الكتابة أيضاً، وهو زمن الوباء والحجر، إلّا أنّ نصرالله، لم يحمّل روايته همّ الحجر وما رافقه، ولا ادّعى أنه يكتب زمنَ الحجر والأوبئة، بل أبقى على تعليقات بسيطة يرسلها إلى نور وترسلها نور إليه بين فصل وآخر، حول نوع الحياة الجديد، فقط من أجل إخبار القارئ بأنّ الرواية كُتبت في ذلك الوقت ليس إلّا.

شخصيات الرواية الأخرى، توزّعت في ما بعد في شتاتها الخاص: قاسم في جامعة الكويت، وبشير في جامعة عمّان، أمّا نور فقد أصبحت طالبة طب في جامعة القاهرة. كلّ ذلك قبل أن ينهي إبراهيم المرحلة الثانوية، ويأتي عدم التركيز على شخصيات انخرطت في العمل المقاوم، تأكيداً على أن عنوان الرواية «طفولتي» لا بدّ من أن يبقى مسيطراً. وهذا أمر بديهي بأن لا يقع كاتب كبير كإبراهيم نصرالله في فخّ كهذا. وقبل أن تنتهي الأحداث مع نهاية الطفولة السادسة، يأتي عنوان «زوم إن» ليؤكّد أن النصّ يحكي قصة أشخاص حقيقيين وهو سيرة في جميع الأحوال، فنتساءل: هل كلّ ما ورد هو حقيقي وليس إلّا أسلوب الكاتب المتمكّن من هذا الفنّ الأدبيّ؟ فيعدد الكاتب لنا أموراً من قبيل «6 أشياء يجب أن تُعرَف عن بشير» و«7 أشياء عن خالي محمود لم أكتب عنها»، وغيرهما، إلا أنّ عنوان «5 أشياء لم تعرفها نور عني» جاءت كلها على شكل نقاط الحذف (...) وهنا يردّنا الكاتب إلى أننا أمام رواية ليس إلّا، رواية ممتعة، لغةً ومضموناً وأحداثاً، بكاءً وابتساماً وتشويقاً، حبّاً طفولياً لمّا ينتهِ بعد.

ينهي الكاتب روايته بقصيدة لـه، تنتهي بقوله: «خسرتُ كثيراً لأكسبَ نفسي، ظلالي مملوءةً بالمياه، وقلبي لمّا يزل بعدُ أخضر». أما في هذه القراءة، فنود الإنهاء بحدثٍ مرّ في النص، وجملة قالتها نور. الحدث الذي فاجأ الجميع عندما غنّى أبو الفوارس، الفدائي العسكري الجادّ القيادي، «أبو الفوارس غنّى؟ أبو الفوارس؟ سألت غير مصدّقة. لأقول نعم، غنّى، فهؤلاء الذين نظنّهم لا يغنّون، هم أطفال في أحيان كثيرة. والجملة التي لا بدّ أن نُذكّر هنا «الحرية مثل الـمي... من غيرها ما في شي حَي».

لمحات

مصطفى العباسي

يتناول كتاب الباحث والمؤرّخ الفلسطيني مصطفى العباسي «طبريا العربية تحت الحكم البريطاني 1918-1948: دراسة اجتماعية وسياسية» (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات) تاريخ مدينة طبريا على امتداد قرنين من بداية نهضتها الحديثة أوائل القرن الثامن عشر. وحتى أحداث نكبة فلسطين عام 1948. يستعرض الكتاب أشكال الحكم والإدارة في طبريا، والتحولات السياسية والاجتماعية التي مرّت بها المدينة ما بين الفترتين العثمانية والبريطانية. يتحدث الكاتب عن أحوال السكان العرب ودور النُّخب والأعيان في قيادة المدينة ومواجهة التحديات التي فرضها كل من الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية وتوافد المهاجرين اليهود إلى أرض فلسطين. كما يتطرق الكاتب إلى النشاط الاقتصادي في المدينة ومصادر الدخل خلال الانتداب. يرصد العباسي كذلك العلاقات اليهودية -العربية في طبريا وطرد السكان العرب من مدينتهم في نيسان 1948، وقصة هدم مدينة طبريا القديمة، بما في ذلك أسوارها، ومعظم معالمها التاريخية.

شريف شعبان

يسعى الباحث المصري شريف شعبان في كتابه «ملك من ذهب» (دار الرواق) لإماطة اللثام عن حياة الملك توت عنخ أمون وحياته الغامضة. علماً أنّ توت عنخ أمون بلغ شهرة لم يصل إليها أي ملك مصري رغم أنه لم يُؤسِّس حدود مصر مثل تحتمس الثالث، ولم يبن منشآت معمارية مثل هرم خوفو، كما لم يحدث ثورة فكرية ودينية مزلزلة مثل والده أخناتون. يعتبر الكاتب أنّ هذه الشهرة كانت تعويضاً عن المآسي التي عاشها هذا الملك الذي اعتلى العرش ولم يتعدّ التاسعة من عمره، وعانى من تشوّهات منعته من ممارسة أي رياضة عنيفة. لذا آثر الاستكانة وتعلّم العلوم المختلفة. حمل توت عنخ أمون ذنوب أبيه وناله قدر من اللعنات من دون أن يكون له دور في ثورة أخناتون الفكرية والعقائدية، خصوصاً أنّه عاد هو وزوجته إلى حظيرة آمون وانحنى لعاصفة التيار الديني القديم. يؤكد شريف شعبان أنّ كنوز توت عنخ أمون من الذهب والأحجار الكريمة التي اكتُشفت في مقبرته، أخرجت اسمه من غياهب النسيان حين طافت بلاد الدنيا واستقرّت في المتحف المصري الكبير، وعرّفت الجمهور إلى هذا الملك المثقّف صاحب المهارات السياسية والفكرية.

أحمد محمد الشرقاوي

يُقلّب الكاتب المصري أحمد محمد الشرقاوي في كتابه «حكايات أندلسية» (دار البشير) صفحات من تاريخ حُكّام الأندلس، ويدخلنا مجالسهم العلمية والأدبية لنتعرف إلى أهم الأدباء والشعراء. يخبرنا الكاتب من خلال حكاياته كيف صارت الأندلس حاضرة الدنيا ودُرّة الممالك وكيف كانت واحة للأمن وملاذاً لكل من يبتغي العيش الرغيد، وكيف ازدهرت وفاقت غيرها من البلاد حتى صارت مقصد طلاب العلم والتجار. تنقلنا حكايات الأندلس إلى القصور الملكية لكي ندلف إلى الأبهاء والمقاصير ونجلس الأصائل والصحوات في الشرفات ونُمتع ناظرينا بجنات قرطبة وروابي إشبيلية وبساتين غرناطة. كما سنذهب إلى «بيت الحكمة» مكتبة الحكم المستنصر لنرى كيف بذل في جمعها وترتيبها والعناية بها من وقته ومن ماله ما جعلها أعجوبة الزمان ونادرة الدهر. ستجيبنا الحكايات أيضاً على تساؤلاتنا حول أسباب سقوط الأندلس وإن كان ذلك بسبب تقصير أهلها وتفريطهم أم بسبب المؤامرات والمكائد.

سليمان المعمري

يجمع الكاتب والإعلامي العُماني سليمان المعمري في كتابه «من مسافة قريبة» (دار الرافدين) نخبة من الحوارات الإذاعية مع أهم الحاضرين والمؤثّرين في المشهد الثقافي العربي في السنوات الأخيرة: أدونيس، أحمد ناصر، بهاء طاهر، توفيق صالح، سماء عيسى، سمير جريس، صالح علماني، صبحي حديدي، عبد السلام بنعبدالعالي، عبد العزيز الفارسي، عبد الفتاح كيليطو، عبدالله حبيب، قاسم حداد، ماري طوق، نادرة محمود، هبة القواس وواسيني الأعرج. يؤكد المؤلف أن كتابه يتعدى الرغبة في توثيق عمله الإذاعي إلى الرغبة في نشر عُصارة فكر هؤلاء المفكرين والأدباء والفنانين، وأرائهم ورؤاهم في الفكر والسياسة والأدب والفنّ والحياة. يؤكد أنه اختار «من مسافة قريبة» عنواناً للكتاب ليس فقط لأن الحوارات كانت حميمية، ولكن أيضاً لأن «من مسافة قريبة» هو أقرب عناوين برامجه الإذاعية إلى نفسه، وهو برنامج بثّته إذاعة سلطنة عُمان من عام 2012 إلى عام 2016، وهي فترة زخرت بفعّاليات ثقافية وفنيّة عديدة نُظّمتْ في سلطنة عُمان واستُضيف خلالها هؤلاء المثقفون، كلّ في مجال تخصّصه.

نزار عبد الستار

تدور أحداث رواية «الأدميرال لا يحب الشاي» (دار الساقي) للكاتب العراقي نزار عبد الستار في منتصف القرن التاسع عشر بين مدينة البصرة ولندن ومدن عدة في الهند مثل كلكوتا وبانتا وجانسي. تُسلّط الرواية الضوء على السنوات الأخيرة من عمر شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت تدير المصالح التجارية والعسكرية الإنكليزية في الهند وجنوب غرب آسيا. الثيمة الرئيسية للرواية هي هيمنة الشركات الكبرى على عالم التجارة وتسبّبها بالخراب للهند وللعديد من البلدان، بالإضافة إلى تدميرها للمعايير الإنسانية للحياة وتزويرها للحقائق في سبيل تحقيق مكاسب مالية مُعَسّسة بالدم. تواكب الرواية المسار التاريخي لشركة الهند الشرقية وتركز على شخصية الأدميرال عزيز لانكستر الذي يُنفى إلى البصرة بعد سنوات من الحروب قضاها في زراعة وتجارة الأفيون بين الهند والصين، ليقوم بعدها وهو سجين بإدخال الشاي إلى البصرة ومحاربة الهولنديين الذين يتاجرون بالقهوة. هذه الرواية تؤكد المؤكد عن خضوع العالم لسيطرة الشركات المهيمنة الكبرى التي تستعبد وتستغل الإنسان وتكشف عن تآوّرات المستضعَفين وصرخاتهم المكبوتة.

باولو سكوت

تنتمي رواية «نُـنـيّ أصفر» (2019) للكاتب البرازيلي باولو سكوت الصادرة بترجمتها العربية عن «دار الخان» في الكويت (ترجمة نور طلال نصرة) إلى أدب ما بعد الحداثة، وتتميّز بمفرداتها البسيطة ولغتها السريعة البعيدة عن اللغة الكلاسيكية. تحكي الرواية قصة فيديريكو الشاب صاحب البشرة البُنيّة الفاتحة الذي يجد نفسه ضمن لجنة مؤلفة من ثمانية أشخاص، مكلّفين بوضع حل لموجة الصراعات المحتدمة بين طلاب الجامعات البرازيلية من خلال توزيع حصص كوتا عادلة للطلاب السود، وتحديد من يستحق أن يستفيد من هذه الشواغر في البرازيل، هذا البلد المعروف بالتصنيف العرقي وبمجتمعه المتشعّب والمُتنوع. يشعر قارئ هذا النص الروائي أنه أمام مشهد سينمائي، بدلالات بصرية واضحة، تفرض إيقاعاً سريعاً لأحداث الرواية وتقاطعات الحوارات، وتجاذبات الشخصيات وصراعاتها. تعجّ الرواية بقضايا ثقافية وسياسية واجتماعية وعنصرية وعرقية، ما يجعلنا نقرأها دون ملل.

تغريد عبد العال

تركنا أحياناً الطبيعة نتاقلها فقط. وحين ندرك كم هي لطيفة أو عنيفة، فإن الحديث عنها يبقى سؤالاً وجودياً من أسئلة الفن. نكتب كثيراً عن المطر، وأحياناً نكتب من تأملاتنا له وأحياناً لنشعر أنه يشبه ما يحدث داخلنا. أليس ذلك ما يحدث حولنا من كوارث طبيعية؟ فهل نقلد الطبيعة في عذوبتها؟ ولماذا تقسو على هذا الحدّ؟

في روايـة المكسيكي خـوان بـيّـورو «محـاضرة في المطر» (ترجمة جمال مبـارك ــ منـشـورات تـكـويـن)، سؤال عن مطر أغرق قصائد الشعراء، ذلك الموضوع الذي يجعلنا نفكر في ما هي أهميته. لكننا في الوقت نفسه ندرك أنه يملأ أدبنا وأحلامنا الصغيرة والكبيرة. ننسى أنه رغم عذوبته، يذكّرنا بأشياء أخرى حدثت معنا. ربما يجعلنا نفكر ألّا نكتب عنه فقط، بل أن نتركه يسقط أمامنا فنتعرف بهشاشتنا تماماً كما تفعل الزلازل والعواصف والرياح...

في الرواية، أستاذ جامعي يحاول أن يجمع أفكاره ليقرأ محاضرة في المطر، لكنه يدخل في شرود طويل يأخذنا إلى اعترافاته الخاصة عن الحياة، فيقول: ما المحاضرة إن لم تكن شروداً منظّماً؟ ولكن ذلك الشرود يصبح موضوعاً للرواية التي تقاوم موضوعها وتتخلى عنه، فيتأمل عبر المطر أشياء أخرى، كالحب والكتب والحياة والشعر والكتابة، إنها إذاً ليست رواية عن المطر، بل من خلاله كأنها تمر كحديث سري أثناء تساقط المطر أمام نافذة بيت، بينما تبدأ الاعترافات...

كان أهم الاعترافات هو أنه رغم عمله في مكتبة، إلا أنه لم يعرف كيف يتحدث إلى أبيه. يقول: «أعتقد بأن الأشياء كلّها متصلٌ بعضُها ببعض». هنا يجعلنا الكاتب نفكر في جدوى الأدب، أو كيف تتصل تلك الكتب بالحياة، وأنه من أول الدروس التي نتعلمها من الطبيعة هو الإصغاء إليها، والتعلم من إيماءاتها المختلفة.

الكاتب يبتعد عن موضوع المطر، كأنه يريد أن يقول أشياء أخرى ربما أهم من ذلك، أو ربما لأنه يريد أن يقول إنّ الأدب الحقيقي، يأتي من ذلك اللقاء بين الحياة والطبيعة.

وهنا أيضاً نفكر أنّ المطر ليس فقط موضوعاً، بل إن سقوطه بتلقائية وتلقائياً، هو ما يجعل الكاتب عفوياً وتلقائياً، يتهرب من ذلك الموضوع، لكنه في الوقت نفسه يدخل إلى أعماق نفسه ليجعلنا نشاهد كيف يتقاطع مع أشياء أخرى حوله. هكذا ربما تلهمنا الطبيعة للحديث عنها بطريقة غير مباشرة، فنذهب بعيداً عنوة. إنّها هنا داخلنا تحفّز فينا أشياء أخرى، ولهذا يتناسى موضوع المحاضرة ليجعلنا نتساءل لماذا؟ هل هو عدم أهميتها بالنسبة إليه أم أشياء أخرى، أم لأن الموضوع الذاتي والشخصي هو جزء مهم ما يريد قوله. فالمطر هو ذلك السقوط المتداعي للأفكار والأسئلة في ذهنه. المطر ربما هو تلك المشاعر التي كان يخبئها لحبيبته من دون أن يقولها أو ربما هو تلك الرواية التي بين أيدينا من دون أن نعرف...

تمر الاقتباسات على طول الرواية كأنها تذكرنا بأنّ ما يحدث مع هؤلاء الشعراء، يحدث أيضاً في الحياة، وليس فقط في الكتب، فالموضوع ليس موضوع محاضرة، إنما ما يحدث. فهو يحدث في الخارج وفي الهواء كما يمر المطر قبل أن يسقط على الأرض. يذكّرنا بذلك في بداية الرواية: «الأدب هو ذلك المكان حيث ينهمر المطر»، فتمر عبارة دانتي: «ينهمر المطر في الخيال السامي»، كأنه مدح لذلك الخيال الذي يأخذ الشعراء بعيداً نحو مناطق دافئة. وتمر عبارة الشاعر ليوبولد لوغينيس الحزينة: «الدمعة الكامنة في كل قطرة تنهمر» لتذكرنا بالحزن، وكم تكون الطبيعة حزينة أو تعكس حزننا الداخلي. وتلك العبارة للشاعر إليسيو دييغو: «كان دموع الآخر تنساب على وجهي»، لتوحي بالإحساس بالآخر وكأن المطر رسالة خفية.

ما تقوله الطبيعة أحياناً، نعجز عن فهمه، كما قال آلان بوسكيه: «الوجود كتاب ضخم، نقرأه بلا توقف، وسرعان ما نكتشف أنه كُتب بلغة أجنبية لا يمكن فهمها أبداً». لذلك نشعر أحياناً أنها تصبح مرآة لما يحدث داخلنا، هذا ما تحاول الرواية أن تعكسه أو توحيه. فما يحدث في الخارج، يترك أثاره في الداخل. يحاول الأدب أن يقول أشياء كثيرة عما يحدث للإنسان وهذا أعمق من مجرد وصف للمطر، ما يلامس الإنسان في الداخل هو الأهم وهو الذي يبقى أيضاً.

ربما أراد الكاتب أن يأخذنا في رحلة عبر المطر من دون الشرح والحديث الأنيق عنه، من دون تلك المحاضرات، لنتأمل أكثر في أسئلة تشغلنا، لنقول كم تبدو الطبيعة حزينة أو فرحة أو خائفة أو عنيفة، لا بد من أننا سنظل نتاملها ونكتب عن تلك الطبيعة التي تحدث داخلنا. أو ربما نتذكر دائماً هشاشتنا. ففي غموضها، نستحضر ذلك السري والغامض، ونتساءل: كم من الروايات كتبت عن المطر؟ وكم من الروايات كتبت عن الأشجار؟ وكم من الروايات كتبت عن الزلزال؟ بل إنّ هناك روايات كثيرة عن الأشجار، لعلّ أشهرها رواية أوفرستوري لريتشارد باورز ، وهي فقط عن الأشجار. ونحن نعلم كم كتبنا عن الأشجار وكم رأينا أنها تشهبنا. في هذه الرواية، يلتقي تسعة غرباء بعد كارثة طبيعية ليتحدثوا عن تجربتهم مع الأشجار وليكتشفوا أثر الغابات علينا كبشر، ولكنها أيضاً عن تلك الرؤى الفلسفية والحوارات بيننا وبين الطبيعة.

في رواية «المطر» القصيرة التي لا تتجاوز الثماني والخمسين صفحة، نعثر على مطر آخر لا يغادر وجهنا من دون أن نسمع الكثير عنه.

خوان بيّورو: الأدب هو ذلك المكان حيث ينهمر المطر

المطر هو ذلك السقوط المتداعي للأفكار والأسئلة

أوراق

الإله الكسعة: إله صابئة البطائح في جنوب العراق

زكريا محمد *

حدّثنا ابن النديم في «الفهرست» عن صابئة البطائح في جنوب العراق، وهي الطائفة التي يعتقد بقوة أنها التي ورد ذكرها في القرآن باسم «الصابئين». وأخبرنا أن لها رئيساً باسم غريب يدعى «الحسيح»، أو «الحسح»: «هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح، هم صابئة البطائح، يقولون بالاغتسال ويغسلون جميع ما يأكلونه، ورئيسهم يُعرف بالحسيح. وهو الذي شرع الملة، ويزعم الكونين ذكراً وأنثى وأن البقول من شرع الذكر وأن الأكشوث [نبات طفيلي] من شرع الأنثى وأن الأشجار عروقه. ولهم أقاويل شنيعة تجري مجرى الخرافة. وكان تلميذه يقال له شمعون، وكانوا يوافقون المانوية في الأصلين وتفترق ملّتهم بعد، وفيهم من يعظم النجوم إلى وقتنا هذا» (ابن النديم، الفهرست).

ويربط الباحثون بين «الحسيح» هذا و«الكسيا» أو «الكسي» Elksai زعيم طائفة الكسيئيين ElKesaites التي كان مركزها في القرون الأولى الميلادية في فلسطين إلى الشمال من البحر الميت، ويرون أنهما الشخص ذاته. وفي رأي أفيفانوس، فإن الاسم الكسيا يعني «القوة الخفية». وهناك من اقترح أن الكسيا مأخوذ من الجذر العبري والآرامي «قصي» الذي يعني: الخفي. أي أن الاسم يعني «الإله الخفي». غير أن آخرين يربطونه بـ «آدم كسيا» في الأدب الصابئي المندائي في العراق، والذي يُترجم عادة على أنه «آدم النوراني».

وإذا صحّ الربط بين «الحسح» و«الكسيا»، وهو ما نعتقده بقوة، فإن علينا أن نفسر سبب الافتراق الكبير في اللفظ بين «الكسيا» و«الحسيح».

ولو ذهبنا إلى اللغة العربية، فإننا سنجد أنّ كلمة «الحسح» لا تعني شيئاً، إذ ليس هناك جذر (حسح) في هذه اللغة، الأمر الذي يعني أن علينا أن نبحث عن طريق آخر لضبط هذا الاسم وفهمه. فوق ذلك، فإن هذا الاسم «لم يرد عند صابئة جنوب العراق» (عزيز سباهي، أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، منشورات دار المدى، دمشق، 2002 ص 106). بذا يمكن الافتراض أن هذا الاسم قد صُحّف وحُرّف.

الحسيح المصحّف

بالتالي، فليست لدينا إمكانية للوصول إلى الصيغة الأصلية للاسم إلا عبر المقارنة بين صيغة ابن النديم (الحسيح، الحسح) وبين الصيغة اليونانية. أو قل إنه ليس لدينا من طريقة لفهم الاسم إلا عبر تصحيح صيغة ابن النديم من خلال الصيغة اليونانية. واللجوء إلى الصيغة اليونانية لضبط الاسم أمر مشروع من جهتين:

أولاً: أنها أقدم بكثير من صيغة ابن النديم. فقد وردت عند هيبوليتس منذ القرن الثالث الميلادي وبصيغة Elchasa.

ثانياً: إنها صيغ تواترت في الورود، بشكل متقارب جداً، عند مؤرّخين عديدين، وعلى مدى قرنين من الزمان، الأمر الذي يجعل من الصعب الافتراض أنهم جميعاً أخطؤوا في نقل الاسم، في حين أن صيغة «الحسيح» لم تردنا إلا مرة واحدة يتيمة عند ابن النديم فقط.

وفكرة تصحيف الاسم «الحسيح» ليست جديدة: «فقد أثار خلو الاسم من حروف العلة «أي الحركات» والنقاط بعض التكهنات في تفسيره. وذهب بعضهم إلى أنه «المسيح» وحدث التحريف بفعل الاستنساخ» (عزيز سباهي، مصدر سبق ذكره، هامش ص 105).

عليه، فوضع الاسم في نص ابن النديم يجعل احتمال التصحيف وارداً جداً. لكن بما أن الدلائل تشير إلى أن ابن النديم كان ينقل مباشرة عن ألسنة طائفة صابئة البطائح، التي كانت ما زالت موجودة في عصره، أو عن أناس يعرفونها جيداً، فإن من المنطقي افتراض أن التصحيف حدث بعد ابن النديم، أي عند الكتبة الذين نسخوا كتابه الفهرست، وليس عند ابن النديم نفسه.

الصيغة اليونانية

ولنبدأ بالقول إن الاسم بصيغته اليونانية ورد بادئاً بما يبدو أنه «أل» تعريف العربية في جميع المصادر باستثناء مصدر واحد بدأه بهاء التعريف. وهو ما يشير إلى أن الصيغة التي نقلت عنها هذه المصادر كانت عربية. فالعربية هي اللغة الوحيدة التي تستخدم أل التعريف. ويؤيد هذا أنّ أفيفانوس سمّى المنطقة التي يقيم فيها الكسيئيون في شمال البحر الميت باسم «العربية». وهو ما يعني أنها منطقة ذات طابع عربي ما. وبعد «أل» التعريف، يأتي الاسم في جميع المصادر اليونانية بما يبدو أنه حرف الكاف. وهذا يرغمنا على افتراض أن الحرف الأول في صيغة ابن النديم يجب أن يكون كافاً لا حاء. أي أن الاسم هو «الكسيح»، إذا افترضنا أن الحرف الأخير حاء فعلاً، وهو ما نشك فيه كما سنرى. وتصحيف الكاف إلى حاء أمر ممكن جداً في الكتابة العربية، وخاصة في اليدوية منها. فالكاف فيها تشبه حاء لها عقفة ترتد إلى الوراء. وأي قصر في هذه العقفة، سيجعل ناسخاً ما قادراً على التوهم أنها حاء: «ك، ح». ويبدو أن هذا هو ما حصل فعلاً.

إذاً، فالحاء الأولى كانت كافاً في الأصل. أما الحاء الأخيرة، فنجد في مقابلها في أغلب الصيغ اليونانية ما يوحي بعين أو همزة أو ياء مشدّدة (الكسيّا). وهذا يعني أن صيغة ابن النديم يجب أن تكون: «الكسع» أو «الكسي» أو «الكسيء» أو شيئاً قريباً من هاتين الصيغتين. وفي هذه الأحوال كلها، فإن الصيغة اليونانية ستكتب الحرف الأخير ياء، ذلك أن حرف العين غير موجود في اللغات الهندوأوروبية.

نقش الكساميّنوس Alexamenos graffito في تلة البالاتين في روما

وعند الذهاب إلى العربية، فسوف نجد أن جذر «كسأ» هو تنويع على جذر «كسع». فكلاهما يعطي معنى التأخر والتبعية: «الكسع: أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء» (لسان العرب). يضيف: «وردتِ الخيول يكسع بعضها بعضاً... وقيل: كسعه إذا همزه من ورائه بكلام قبيح» (لسان العرب). يزيد اللسان: «كسء كل شيء وكسوءه: مؤخّره. وكسء الشهر وكسوءه: آخره» (لسان العرب). ويقول الجوهري: «كَسَأته: تبعته. ويقال للرجل إذا هزم القوم فمر وهو يطردهم: مر فلان يكْسَؤهم ويَكْسَعُهم، أي يتبعهم. والأكساء الأدبار» (الجوهري، الصحاح). وهكذا، فالجذران تنويع على بعضهما في المعنى، وهما يعطيان معنى التأخر والتابعية. بالتالي، يمكن للاسم «الكسيا» أن يكون «الكسيع» أو «الكسيء» وبالمعنى ذاته. واعتقادي أن صيغة ابن النديم كانت بالعين في الأصل، أي «الكسيع، الكسع» ثم حرفت إلى «الحسيح». والاسم «الكسيع، الكسع» يضعنا في قلب الميثولوجيا العربية، وفي قلب ديانة العرب قبل الإسلام. فلدينا إله عربي معروف يدعى «الكسعة»، وإن كانت المصادر العربية لا تقدم لنا عن طبيعته شيئاً تقريباً. يقول «لسان العرب» عن الكسعة «وثن كان يُعبد» (لسان العرب). يضيف الزبيدي: «والكُسْعَةُ: اسمُ صَنَمٍ كانَ يُعْبَدُ» (الزبيدي، تاج العروس). ويقال: تكسع في ضلاله انطلاقاً من اسم هذا الصنم على حسب بعض القواميس العربية. إضافة إلى ذلك، فهناك حي من قيس عيلان اليمن يدعى «الكسعة» و«الكسع» بالجمع. ويبدو أن اسم هذا الحي أُخذ من اسم هذا الإله، وهو ما يعني أن هذا الحي كان من عباده في وقت ما. ونحن نعلم أنّ كثيراً من القبائل تسمّي نفسها بأسماء آلهتها، فيصبح الإله ذاته جداً للقبيلة. والكسعة صيغة مبالغة من الجذر كسع. بالتالي، ربما تكون صيغة هيبوليتس Elchasa هي الأقرب إلى الصيغة العربية. فهي توحي بأنها نقل حرفي لكلمة: الكسعة alkas'a. أما صيغة الكسيا Elksai فربما كانت مأخوذة من الكسيع 'alkasī.

> الإله الكسعة على علاقة بالحمار أي أن الحمار هو تجسيده الحيواني

الكسعة والحمار

ويبدو أن الإله الكسعة على علاقة بالحمار. أي أن الحمار هو تجسيده الحيواني. يؤيد هذا بقوة أن الحمير ذاتها، أو الحُمر البرية السائمة، تدعى في العربية: الكسعة: «الكسعة: الحمر السائمة» (لسان العرب). وجاء في حديث نبوي: «ليس في الكسعة صدقة». والغالبية على أن الكسعة هي الحمير: «قال أبو عبيدة: «الكسعة: الحمير» (الأزهري، تهذيب اللغة). وعدم لزوم الصدقة عن الكسعة يوحي بسبب ديني. لكن الأهم أنه حين يتشارك حيوان وإله في الاسم ذاته فإن من المنطقي أن نفترض أن هذا الحيوان هو حيوان الإله. أكثر من هذا تخبرنا المصادر العربية أن الكسعوم هو الحمار بالحميرية: «الكسعوم: الحمار، بالحميرية. ويقال: بل الكسعوم، والأصل فيه الكسعة، والميم زائدة» (لسان العرب). وهناك شخصية شهيرة في الأدب العربي القديم باسم (الكسعي) على علاقة بحمير الوحش على وجه الخصوص:

(الكسع: حي من قيسِ عيلان، وقيل: هم حي من اليمن رماة. ومنهم الكسعِي الذي يُضرب به المثل في الندامة. وهو رجل رام، رمى بعدما أسدف الليل عيراً [حمار وحش] فأصابه وظن أنه أخطأه فكسر قوسه، وقيل: وقطع إصبعه، ثم ندم من الغد حين نظر إلى العير مقتولاً وسهمه فيه، فصار مثلاً لكل نادم على فعل يفعله؛ وإياه عنى الفرزدق بقوله: ندمت ندامة الكسعِي، لما/ غدت مني مطلقة نوار... وقيل: كان اسمه محارِب بن قيس من بني كسيعة أو بني الكسَعِ بطن من حمير» (الخليل بن أحمد، العين). هذه القصة تبدو قصة دينية ما، ويبدو (الكسعي الصياد) كما لو أنه على علاقة بكهانة ما للإله الكسعة.

إذاً، فهناك صنم- إله يدعى: الكسعة أو الكسيعة. وهناك قبيلة تدعى (كسع، كسعة، كسيعة). يوحي اسمها بأنها من عباد هذا الإله. فجزء كبير من آباء قبائل جزيرة العرب هم آلهة في الواقع. ثم هناك رجل من هذه القبيلة يدعى (الكسعي) له علاقة بالحُمر الوحشية يدعى (الكسعي)، ربما كانت مهمته كصياد لحمير الوحش ذات طابع كهاني.

الأسينيون

وهنا فرقة دينية في فلسطين باسم: الأوسيانيين Osssaeans. وقد ربط أفيفانيوس هذه الفرقة بفرقة الكسيئيين (الكسعيين): وأخبرنا أن الأوسيانيين وفرقة أخرى سماها Sampsaeana وترجمها على أنها تعني «الشمسيين». فرقتان قريبتان من بعضهما، ابتعدتا عن اليهودية واتبعتا مبادئ الكسيئيين. ومن الواضح أن الأوسيانيين هؤلاء هم الأسينيون الشهيرون Essenes . وإذا كان «الكسعيون» مرتبطين بالحمار، فليس غريباً أن يكون إله الأسينيين أيضاً مرتبطاً بالحمار. والحق أن اسم الأسينيين يعني: الحميريون. فالحمار يدعى asinus باللاتينية.

وفي رواية «الحمار الذهبي» للوكيوس أبوليوس، فإن اسم كاهن أوزيريس كان أوسينوس، أي الحمار: «وعندما قدّمت للإلهة صلاتي الصباحية، نظرت إلى كل واحد، علّني أجد قدمه تشبه قدم الشخص الذي رأيته في حلمي. وسرعان ما تأكد ذلك. فقد جلب انتباهي فوراً واحد من بين الكهنة، كان مطابقاً للشخص الذي تراءى لي ليلاً مطابقة تامة زيادة على العرج في رجله. وكان اسمه، كما علمت في ما بعد أسينوس (الحمار) ماتيكيلوس. ولم يكن الاسم عديم العلاقة بتحولي» (لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة د. أبو العيد دودو، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثالثة، بيروت، 2004، ص 231). أي لم يكن الاسم عديم العلاقة بتحول بطل الرواية إلى حمار. فالقصة كلها تقوم على أن البطل كان يريد التحول إلى طائر، فتحول بالخطأ إلى حمار: «كنت غاضباً جداً على فوتيس التي أرادت أن تجعلني طائراً، فحوّلتني إلى حمار» (الحمار الذهبي- لوكيوس أبوليوس).

إذاً، فالكسيا (الكسيع) في نهاية الأمر إله يتجسّد في حمار. كما أن كاهنه البشري يحمل الاسم ذاته. فكما يكون الإله يكون كاهنه. وهذا يغير كل شيء. وهو سيغير حتى فهمنا لنقش ألكساميّنوس Alexamenos graffito في تلة البالاتين في روما. فـ«ألكساميّنوس» في النقش مرتبط بحمار مصلوب. وإلكساميّنوس اسم مركب من اسمين: ألكسا، أي الكسيع، وميّنوس الذي يبدو تحريفاً للاسم (ماني) نبي المانويين. بالتالي، فلا يمكن للاسم ألكساميّنوس أن يكون قد وُجد قبل أن يربط المانويون أنفسهم بطائفة الكسيئيين (الكسعيين). بذا فالاسم الذي ليس له وجود في اللغة اليونانية أصلاً، ليس إلا انعكاساً لاندماج الطائفتين في حدود القرن الثالث الميلادي.

* شاعر وباحث فلسطيني

Samedi 18 Fevrier 2023 no55
السبت 18 شباط 2023 العدد 55

القوس

www.alqaous.com

8 صفحات

ملحق أسبوعي مخصّص للعدل والإنصاف يصدر مع الأخبار كل سبت

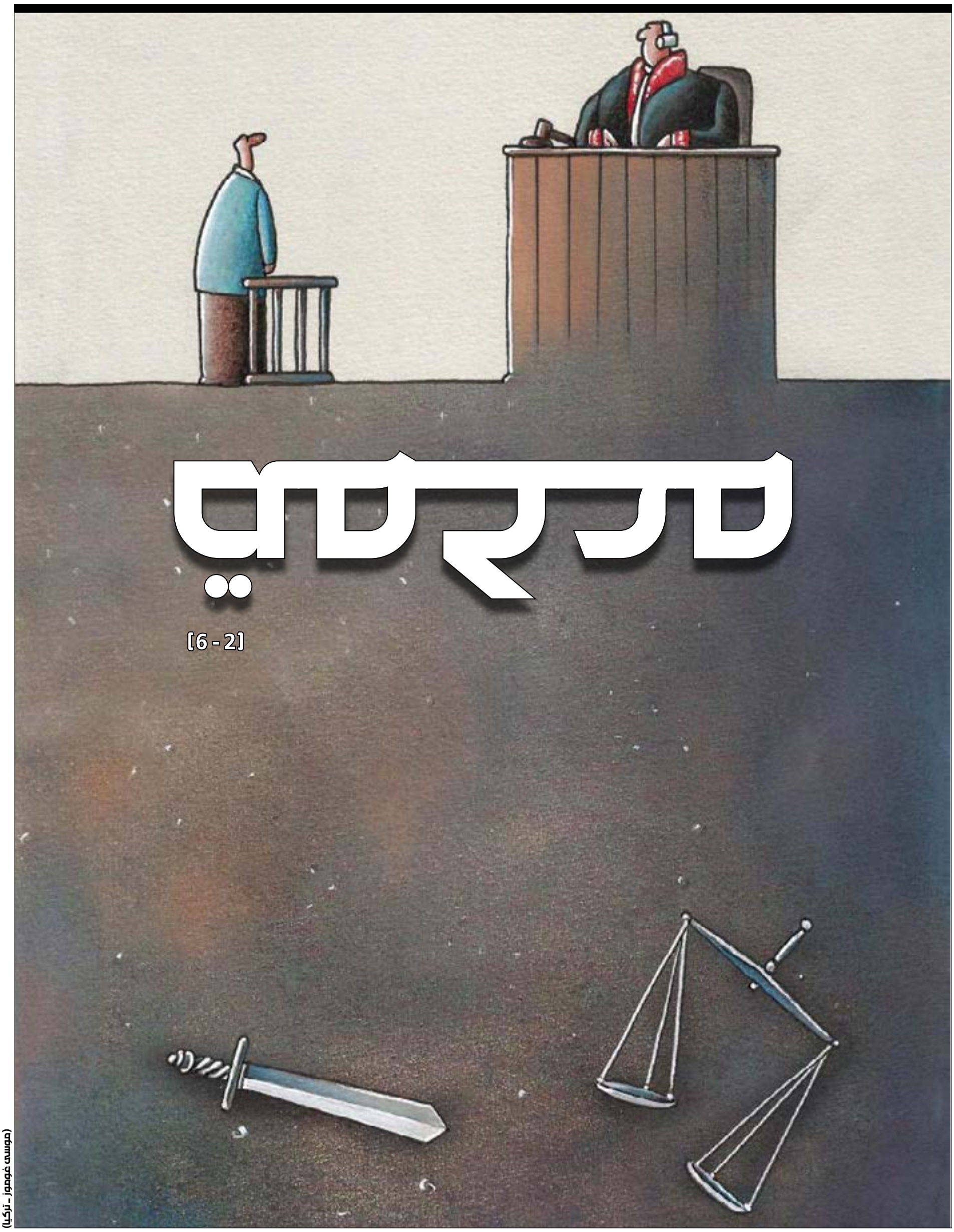

(موسى غوصوز - تركيا)

في العمق

السلطات السياسية لا تنفك تتدخل في عمل السلطات القضائية. واقع يواجهه القضاء اللبناني، ولا يختلف عن نظيره في العالم العربي. بصيص الأمل الذي يخرق هذا الواقع يكمن في وجود رغبة جامحة لدى بعض القضاة بتكريس مبدأ فصل السلطات، وإقرار قانون استقلالية القضاء الذي بات ضرورة للنهوض بالقضاء وتخليصه من عبث السياسيين. على صعيد الوطن العربي، توجد هيئة قضائية يطلق عليها اسم «الاتحاد العربي للقضاة» ترفع مطلب استقلالية القضاء كمدخل لتحقيق العدالة في المجتمعات العربية. وفي لبنان، يرفع «نادي قضاة لبنان» المطلب نفسه باعتباره مدخلاً أساسياً لإصلاح القضاء. مطلب يتكرّر منذ عشرات السنين من دون نتيجة، لأن المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية تتفوّق على الإرادة الصادقة لتحقيق العدالة

قضاة يشخّصون مشكلات القضاء ويطالبون باستقلاليته

مصائب القضاء تتفاقم

فاطمة خشاب درويش

تتحدث القاضية أماني سلامة (قاضي التحقيق الأول في البقاع) بحسرة عن حال القضاء، هي التي اختبرت واقعه على مدى سنوات طوال. تقول: «الأمور على الصعيد القضائي ليست على الطريق الصحيح، كما هي حال البلد. حتى اليوم، لا يزال قانون استقلالية السلطة القضائية بشقّيه المعنوي والمالي غير متوفر، ومعالجات الوضع المالي للقضاة لا تزال غير جدية. وهذا أمر متوقّع طالما أنه ليس هنالك أي منحى إصلاحي عام وعادل، ولا أي خطة علمية لدى السلطة السياسية التي تكتفي بالمعالجة بالقطعة والمسكّنات والفقات». ترفض سلامة الاتهامات بأن «اعتكاف القضاة لأشهر عدّة هو ما أوصل القضاء إلى وضعه الحالي. لا بل إن من الشذاجة قول ذلك لأن الاعتكاف جاء ردّ فعل على وضع ماساوي عام تعاني منه السلطة القضائية أيضاً». إذ «لا يكفي أن يقصد القاضي مكتبه حتى تصطلح الأمور. فالقاضي مرتبط بعوامل عدّة من شأنها تسيير الأمور القضائية بشكل طبيعي. واليوم، يستحيل مثلاً أن يداوم المساعدون القضائيون بشكل طبيعي في قصور العدل بعدما فقدت رواتبهم قيمتها الشرائية، ما يشجعهم على التماس الإكراميات والرّشى».

«القضاء اللبناني يعيش حرب وجود على مستوى بقائه معنوياً ومادياً من كل النواحي»، يقول القاضي حسن حمدان (قاضي التحقيق في الجنوب). ويكمن التحدي في «إقناع القضاة الأكفاء وغير المنغمسين في لعبة الفساد والإفساد بالبقاء ومواصلة النضال المهني، كونهم الأكثر تأثراً بالأزمة، ولأنهم يتلقّون وسيتلقّون عروضاً للالتحاق بمؤسسات القطاع الخاص محلياً أو في الخارج». ويشدّد حمدان على ضرورة إصدار قانون السلطة القضائية، و«استغلال الظرف الضاغط حالياً على السلطة السياسية لإقرارة في حدود المتاح ومن دون مبالغة».

> ليس لدى بعض القضاة النيّة ولا المصلحة باستقلالية القضاء

حاجات غير متوفّرة

تلفت سلامة، من جهتها، إلى الأوضاع «السيئة جداً» للضابطة العدلية، وهي جهاز أساسي في عمل القضاء الجزائي. «ففي أغلب الأوقات، يداوم العسكري خارج مهامه الأمنية، ويقوم باعمال فردية لتحصيل مردود إضافي بعلم المراجع الأمنية التي تعتبر نفسها غير قادرة على تأمين متطلبات الحياة البديهية للعسكريين، فيما لا تلتفت السلطة السياسية إلى كرامتهم. أضف إلى ذلك أن هناك نقصاً حاداً في المستلزمات والأمور الأساسية لتسيير العمل القضائي بالحد الأدنى، من ادوات مكتبية وفاكس وتلفون وكهرباء وأدوات تنظيف وغيرها». كما «لا بد من توفير الوسائل القانونية التي تمكّن القاضي من الوصول إلى المعلومات اللازمة بسهولة وتسريع الإجراءات القضائية وتعديل بعض القوانين التي تكبح عمله، والعمل على توزيع عبء العدد الهائل من الملفات، حتى لا يبقى القضاء بطيئاً أمام قضايا الفساد والإجرام التي تتزايد بسرعة البرق».

ليس شعاراً ولا حلماً

«نحن في حاجة إلى قضاء يتصدى للماسي التي يتعرّض لها الشعب اللبناني، ضمن خطة قضائية واضحة وشاملة تضع السلطة السياسية أمام مسؤولياتها ووجاباتها لحل الأزمات في أسرع وقت بما فيه مصلحة المواطن فقط. كما أننا بحاجة إلى قضاء حكيم ينقضّ على القوي المتجبّر على الشعب وعلى حقوقه، لا على الضعيف الذي دفعه الزمن الرديء إلى خطأ ما. هذا ليس شعراً ولا حلماً، بل حق لكل مواطن عليه أن يعي أن خلاصه مرتبط بقوة مؤسسات الدولة فقط»، تقول القاضية سلامة.

يبقى الشرط الأساس للوصول إلى قضاء فعال يلبّي طموحات الشعب أن ينال استقلاليته الفعلية، فلا يرهن القاضي قراره لمصلحة زعيم أو جهة سياسية كانت وراء تشكيله أو تعيينه في مركز محدد، ولا يلبّي مصلحة بيئته وتوجهاتها أو يصبو إلى الاستحصال على رضاها للتقدم في المراكز القضائية أو حتى الإدارية والوزارية.

اسباب تعثّر الإصلاح

«ليست لدى السلطة السياسية نيّة صادقة بالوصول إلى استقلالية فعلية للقضاء، فضلاً عن أن هناك جزءاً فاعلاً من القضاة لا مصلحة له بمثل هذه الاستقلالية»، بحسب حمدان. «عندما نبلغ مرحلة إعطاء القضاء استقلالية كاملة، عندها نكون قد بدأنا نقارب الموضوع بقواعد ثقافية وسياسية مختلفة كلياً عن الوضع القائم حالياً».

ويؤكد حمدان على أنه «يقيناً لا يمكن إحداث إصلاح مستدام في أي فرع من فروع الدولة، التي تسقى السلطات العامة، من دون إصلاح جذري وعميق في السلطة السياسية. إذ إن القضاء هو فرع لأصل وليس أصلاً بحدّ ذاته، ولا يمكن لأي قضاء في العالم أن يكون سليماً بشكل كلي في ظل نظام سياسي غير سليم. فالقضاء يحتاج إلى كَلّ أجهزة الدولة ليكون فعّالاً، وإلا دخلنا في تحليل وهمي ينتج مزيداً من الإحباط». ويعتبر حمدان أن «الإصلاح الفعلي والحقيقي الاستراتيجي للقضاء، الذي ينعكس على الحياة العامة، متعذر اليوم. جلّ ما يمكن القيام به هو إدخال تحسين على الوضع القضائي، بمعنى تخفيف العيوب والثغرات الموجودة فيه من خلال إصدار قانون استقلالية القضاء بصيغة مقبولة. ولا يجب أن نبقى أسرى التمسك بقاعدة إمّا الإصلاح الشامل أو اللا إصلاح، باعتبار أن الحلم أو الأمل في تحقيق الإصلاح الجذري في المدى القريب والمنظور، قد تجاوزناه، وهو أمر يقع على عاتق الشرائح الناخبة وما فيها من استقطابات تستلزم عملاً دؤوباً من جهات شتّى، تمهيداً للوصول إلى دولة مدنية مبنية على المواطنة لا الرعية».

مبادرة نادي قضاة لبنان. ماذا يقول القضاة؟

تقول القاضية أماني سلامة، أول رئيسة لنادي قضاة لبنان، إن النادي تأسس في إطار «رد فعل القضاة على تعدي السلطة السياسية على السلطة القضائية، وبعض الممارسات القضائية الخاطئة. مارس القضاة حقهم في التجمّع، وهو حق معترف به لهم في كل المعاهدات الدولية»، مشيرة إلى أن «مهمة النادي الأساسية تتركز على تعزيز وتحصين استقلالية القضاء، وقد شارك النادي في جلسات عدّة للجنة الإدارة والعدل ووضع ملاحظاته على مشروع قانون استقلالية القضاء العدلي، وحالياً يشارك في لجنة تعديل قانون القضاء الإداري».

وتلفت سلامة إلى أن «النادي يعمل على إعلاء الصوت لتصحيح المسار، وهو لا يتمتع بأي سلطة تنفيذية فعلية على الأرض»، لكن «القضاة أعضاء النادي يستطيعون ضمن مهامهم واختصاصاتهم أن يطبّقوا هذه المبادئ».

مكي يخشى تعديل مشروع القانون

يشدّد رئيس نادي القضاة القاضي فيصل مكي على أن قانون استقلالية القضاء وحده لا يكفي، «لكن لا يمكن المضي في مسيرة الإصلاح من دونه».

> رواتب المساعدين القضائيين فقدت قيمتها الشرائية ما يشجّع التماس الإكراميات والرّشى

ويلفت إلى أن هناك اقتراح قانون أمام لجنة الإدارة والعدل النيابية، «لكنه لا يلبّي كل طموحاتنا، فقد عمل وزير العدل على استعادته ووضع ملاحظاته عليه، وهذه الملاحظات برأينا تضرب الاستقلالية. نتخوّف من أن يعطونا قانوناً لاستقلالية القضاء بلا مضمون، خصوصاً أن ملاحظات وزير العدل أعادتنا سنوات إلى الوراء لجهة تشكيل مجلس القضاء الأعلى، إذ تخلو من الاستقلالية. وإن كنا نتفهّمه، كون السلطة السياسية لا ترغب بالتخلي عن فرض سلطتها على السلطة القضائية».

سلامة لاستعادة «الهيبة»

تؤكد سلامة أن «القضاء يعدّ الصامت الأكبر، وهذه الصفة أمست عبئاً عليه كونها لا تؤمّن له إطلاقاً أي رهبة أو هيبة. وإذا كان موجب التحفّظ يقضي بأن يحافظ القضاء على وقاره، إلا أن حالة الصمت المطبق تسهّل التعدي عليه وتشويه صورته وعمله. لذلك، عمل النادي منذ تأسيسه على ممارسة حق التعبير بحكمة، بإعلاء الصوت وتسمية الأمور بأسمائها عبر إدانة ما يجب إدانته، وتأييد ما يجب تأييده، واقتراح ما يراه واجباً. وقد ساهم في تشكيل رأي عام مهم حيال ما يجري على الساحة القضائية، وبات رأي النادي محط انتظار من الجميع، بفعل المصداقية والتجرّد والاستقلالية التي كانت ولا تزال محرّك النادي مهما حاول بعض ضعاف النفوس تشويهه».

وردداً على ما يثار حول استقالية أعضاء النادي، أجابت: «لا ندّعي أن كل القضاة المنتسبين إلى النادي مستقلون فعلياً، كما لا ندّعي بطبيعة الحال أن كل القضاة خارج النادي غير مستقلين».

ورغم صعوبة الوضع الحالي، تؤكد سلامة أن «هناك قضاة ممتازين يتمتعون بمؤهلات كبيرة، أهمها انتفاضتهم بشجاعة على واقع قضائي مرّ وواقع عام أمرّ. علينا أن نُكافح في هذا البلد، كلّ في موقعه، علّنا نصل يوماً ما إلى العيش في بلد يتمتع مواطنوه بحقوقهم البديهية».

حمدان: الخروج عن المعايير الطائفية

يرى القاضي حسن حمدان أن أهمية نادي القضاة تكمن في «وجود تجمّع مهني منظّم ذي مرجعية محددة يساهم في تأمين فاعلية أكبر في إعلاء صوت المطالب القضائية، خصوصاً أن النقاش ضمن الهيئتين العامة والإدارية للنادي مفتوح وحر ضمن ضوابط مهنية بالدرجة الأولى، بعيدة كل البعد عن المعايير الطائفية، أفة البلد وجزر تهالكه».

ويعتبر حمدان أن النادي «ساعد في تكريس ثقافة الخروج عن المعايير الطائفية من خلال النقاش العلمي والمهني بين أعضائه وفق المعايير المعتمدة في كل دول العالم، كما سمح بالإضاءة على دور الوظيفة القضائية وضرورة وجود سلطة قضائية مستقلة»، مؤكداً أن هناك قضاةً يتفاعلون مع أفكار النادي من دون الانتساب إليه رسمياً.

ويختم حمدان بأن «النادي يركز على نشر الوعي، ونشر الثقافة القانونية، كما يلعب دوراً حيال السلطة السياسية من خلال الإضاءة على الوضع القضائي ورفع الصوت من خلال بياناته وصفحاته على مواقع التواصل الاجتماعي، أو من خلال أداء أعضاء النادي، ما يشكل مدخلاً لتجربة عمل عام مختلفة، في محاولة لبعث الأمل وتجديد فرص الخروج من الأزمات المتتالية التي فُرضت على القضاء ماضياً وحاضراً، وربما مستقبلاً».

الاتحاد العربي للقضاة
ضمانات الاستقلالية «غير ناضجة»

«واقع القضاء قاتم في أغلب البلدان العربية»، هذا ما تؤكده الأمينة العامة للاتحاد العربي للقضاة القاضية أميرة العمري، مشيرةً إلى أنه «هشاشة الاستقلال المؤسساتي والضمانات القانونية في الدول العربية، في ظل التجاذبات بين السلطات السياسية والسلطات القضائية في كثير من البلدان نتيجة السياسات المتّبعة». وتضيف: «رغم التطور الذي طال العمل القضائي في عدد من الدول العربية، من خلال القوانين والتشريعات واعتماد الرقمنة في المحاكم والهيئات القضائية، لا تزال السياسات العربية تؤثر على الوضع القضائي بشكل مباشر، وتختلف التأثيرات بين بلد وآخر بحسب ظروفه. فهناك بلدان تحت وطأة الاحتلال كفلسطين، وهناك بلدان تشهد ثورات وتغييرات على صعيد المجتمع والأنظمة السياسية». وتؤكد العمري أن «الاتحاد العربي للقضاة، وحد القضاة العرب في جسم قضائي يتشاركون فيه الأهداف نفسها ويتقاسمون فيه الهموم والمشاغل والطموحات. ورغم أنه جسم فتي، إلا أنّه قوي لأن ولادته كانت قوية تحدّت الظروف الصعبة. إذ لم يكن سهلاً تأسيس جسم قضائي يتخطى مختلف الحواجز القانونية والجغرافية لجمع القضاة العرب».

وتأسس الاتحاد (مقره تونس) في كانون الثاني 2019 على يد مجموعة من القضاة العرب. وهو هيكل قضائي عربي إقليمي يضم الهياكل العربية القضائية والقضاة العرب.

وقد صادق على النظام التأسيسي اثنا عشر هيكلاً من مختلف البلدان العربية. وعن أهداف الاتحاد، تؤكد العمري أنها «أهداف جامعة، تسعى إلى تكريس استقلال القضاء». وتضيف: «لا ننكر أن استقلالية السلطة القضائية مطلب عزيز في العالم العربي، ونثمّن استقلالية القضاة في أحكامهم. لكن الضمانات القانونية والهيكلية والمؤسساتية لا تزال فتيّة غير ناضجة في الدول العربية، لذا كان عملنا في الاتحاد لتجسيد تلك المطالب، خصوصاً أن الأمة العربية بيئة واحدة ومناخ واحد. وكما نتحدث عن معايير دولية للقضاء، يمكننا أن نتحدث عن معايير عربية تراعي خصوصية القضاة العرب والمنطقة العربية». وتشرح أن «القضاة المؤسسين آمنوا بالفكرة وقدّموا التمويل للاتحاد، وحرصوا على عدم تلقي أي تمويل أو تبعية من أي جهة خارجية ليكون الاتحاد بمنأى عن أي خلفيات تؤثر على عمله».

تأسس نادي قضاة لبنان كجمعية في نيسان 2018 (حاز على علم وخبر رقم 138 سنة 2019). عمل 33 قاضياً على وضع النظام الأساسي والنظام الداخلي للنادي. وهو يضم قضاة من الفروع الثلاثة: القضاء العدلي، القضاء الإداري (مجلس شورى الدولة)، والقضاء المالي (ديوان المحاسبة). يبلغ عدد القضاة المنتسبين للنادي 106. شارك النادي في تأسيس الاتحاد العربي للقضاة، وهو عضو في الاتحاد الدولي للقضاة.

نادي قضاة لبنان 2018

حول أسباب تأسيس نادي قضاة لبنان، يقول رئيسه القاضي فيصل مكي: «ترتبط الأسباب غير المباشرة بوجود سلطة قضائية تحكمها القوانين، التي تسمح بعدم استقلالية القضاء، وتعطي السلطة السياسية والسلطة التنفيذية الحق في تعيين أعضاء مجلس القضاء الأعلى أو تشكيل القضاة. ونتيجة لعدم استقلالية القضاء، أضحى أكثرية القضاة الذين عملت السلطة السياسية على تعيينهم، لا يمثلون إرادة القضاء الحقيقية». أما الأسباب المباشرة فتتمثل «بالمسّ بحقوق القضاة وضماناتهم في كل مشروع موازنة تصدر عن السلطات. وأنشأنا هذا التجمع القضائي للمطالبة باستقلالية القضاء وعدم تسييسه وعدم تبعية القضاة للسلطة السياسية».

في الواجهة

تضبط القوى الامنية مئات المضبوطات شهرياً، يُدفن معظمها في مستودعات المحاكم في انتظار البتّ في مصيرها، فتكون عرضة للتلف والتلاعب، نتيجة الفوضى، ما يشوّه مسار العدالة، سيّما أنها في صلب الأدلة الجنائية التي ترتكز عليها التحقيقات القضائية، ناهيك عن حرمانها القطاع العام من إمكانية الاستفادة من بيع بعض المضبوطات لترميم المرفق الأمني - القضائي المتهالك

فوضى المضبوطات

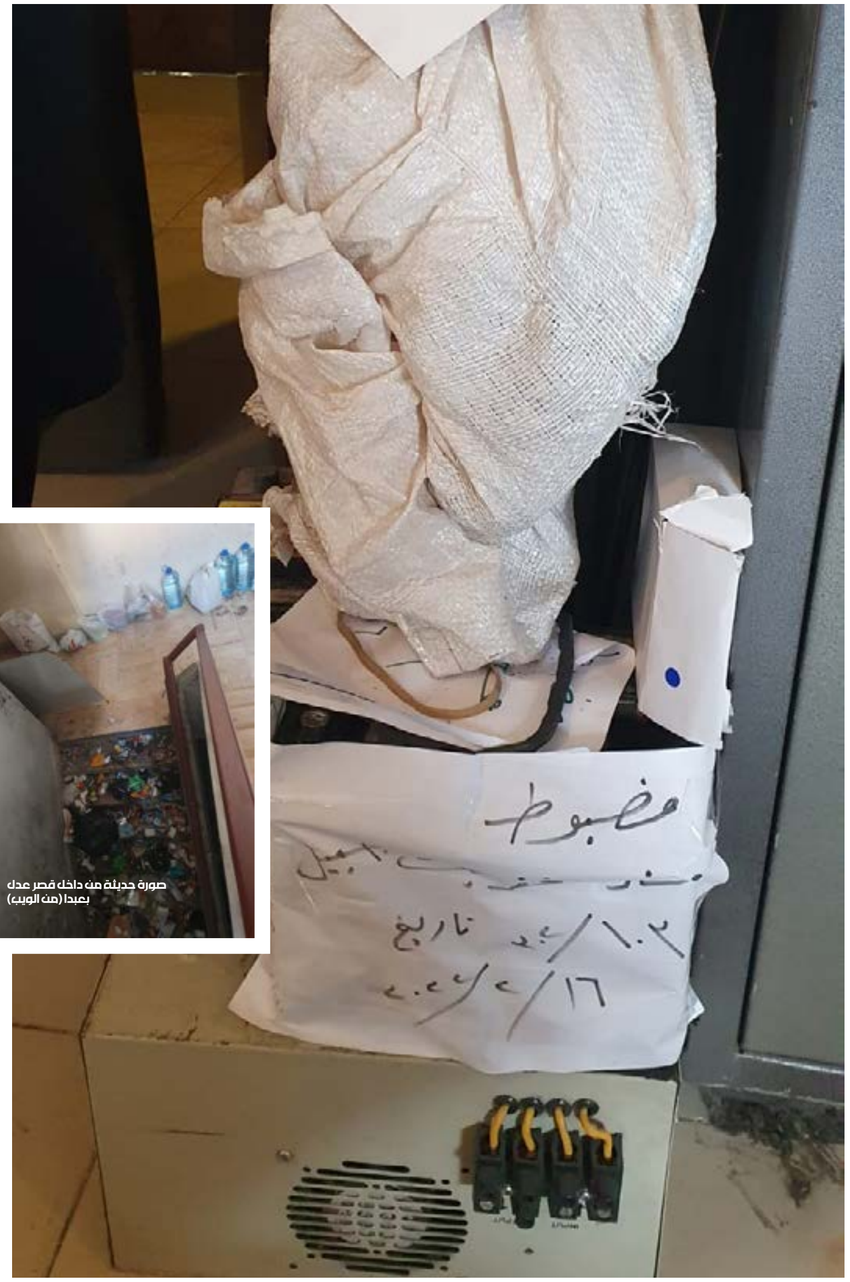

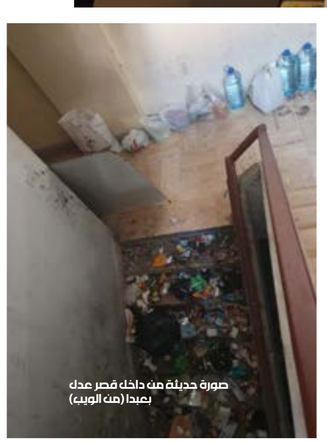

صورة حديثة من داخل قصر عدل بعبدا (من الويب)

سوزان هاشم

«أشبه بالكهوف العائدة إلى حقبة الحرب العالمية الأولى»، هكذا وصف خبير كلّفه الاتحاد الأوروبي الكشف على مستودع المضبوطات الواقع في الطابق السفلي لمبنى قصر عدل بعبدا، لدرس إمكانية تمويل مشروع ترميمه. تراجع الاتحاد عن المشروع بعدما أكّد تقرير الخبير أن «أياً من أعمال الترميم غير مُجدٍ لما يعتري المكان من مشاكل بنيوية، ما يحتّم هدمه كلياً وإعادة بنائه مجدداً».

في المستودع الضيّق والمظلم، تتكدّس آلاف المضبوطات تغطّيها طبقات من العفن والصدأ جرّاء المياه الآسنة التي ترشح من سقفه، فيما ترتع الجرذان في أرجائه مجهزةً على المحتويات التي أصبح معظمها متهالكاً، وهي على أهميتها، وخطورة بعضها كالأسلحة، تُرمى كيفما اتّفق.

وكانت النيابة العامة الاستئنافية في بعبدا أرسلت كتاباً إلى قيادة الجيش، عام 2016، لتسلّم الأسلحة والذخائر المضبوطة التي صدرت أحكام بشأن الملفات التابعة لها. وبعد انفجار مرفأ بيروت، وتلافياً لأي خطر، تمّ التنسيق مع الجيش لتسليمه الأسلحة والذخائر المصادرة. رغم ذلك، فإن المستودع الذي تبلغ مساحته نحو 60 متراً مربعاً بات حالياً أشبه بمقبرة تغصّ بمضبوطات معظمها بحكم التالف. وقد كُلّفت الضابطة العدلية (مخافر وفصائل..) بإبقاء المضبوطات الثقيلة أو ذات الحجم الكبير (أسلحة، أغراض قيّمة..) لديها لعدم إمكانية إيداعها في خزائن النيابة العامة الاستئنافية في جبل لبنان. المفارقة أن الأموال المضبوطة بكميات كبيرة تودع حالياً لدى صندوق تعاضد القضاة، وليس لدى صندوق النيابة العامة على غرار باقي المحاكم، بعدما غصّ الأخير بالأموال عقب انهيار الليرة. وعادة ما يُحكم بمصادرة الأموال لصالح الخزينة اللبنانية، في انتظار البتّ في أمرها. أما الأوراق فتبقى طيّ الملف التابعة له، وتوضع الأغراض الصغيرة الحجم حالياً في خزائن النيابة العامة التي تشرف بشكل مباشر على جميع المضبوطات.

ويُدوّن في سجل الأمانات لدى النيابة العامة في جبل لبنان، سنوياً، أكثر من ألف محضر، يتضمّن كل منها مضبوطاً أو أكثر. ويُدوّن في سجل نوع المضبوط ورقمه وبعض المواصفات، ويجري أحياناً تصوير بعض المضبوطات بحسب طبيعتها، وتتم الاستعانة في الجرائم ذات البعد الجنائي (قتل وغيره) بعناصر المباحث الجنائية للكشف الحسّي والتحليل والمعاينة. إذ نصّت المادة 41 من قانون أصول المحاكمات الجزائية، على أنه «إذا وقعت جريمة مشهودة ينتقل الضابط العدلي فوراً إلى مكان حصولها، ويبلغ النائب العام المختص بها، ويحافظ على الآثار والمعالم والدلائل القابلة للزوال وعلى كل ما يساعد على جلاء الحقيقة. يضبط الأسلحة والمواد المستعملة في الجريمة أو الناتجة عنها.. ويضبط ما يعثر عليه من مواد جرمية أو أشياء ممنوعة. يستعين بالخبرة عند الاقتضاء».

وخارج الجريمة المشهودة، يقوم الضباط العدليون بالمهام المذكورة أعلاه بتكليف من النيابة العامة. وهكذا فإن للضابطة العدلية دوراً أساسياً في المحافظة على المضبوطات كأداة جرمية يتم الارتكاز عليها في التحقيقات اللاحقة، وتحديد مسار العدالة. إزاء ذلك، يشير أحد المعنيين إلى أن أي تلاعب محتمل بهذه الأدلة، إذا حصل، يكون عبر الضابطة العدلية التي تتولى منذ البداية عملية حفظ المضبوطات وتوثيق المعلومات العائدة لها.

وتُنظّم كل المعلومات المتعلقة بالمضبوطات في محاضر تُرسل معها إلى النيابات العامة المختصة، باستثناء تلك التي تفرض طبيعتها أن تبقى في مكانها، أو في مسرح الجريمة مثلاً، ليعيّن حارس قضائي للإشراف عليها، أو تُقفل بالشمع الأحمر ريثما يصدر قرار قضائي يحدد مصيرها. وتجدر الإشارة إلى أن المكننة والرقمنة غائبتان في تنظيم المضبوطات ما يجعلها عرضة للضياع ولتشويه الأدلة التي تحدد مسار الملفات الجنائية. ومن أبرز الأمثلة عن الفوضى، ما حصل مع سيدة ضُبط هاتفها الخلوي من نوع «آيفون»، في معرض ملاحقة جزائية، وحين طالبت باستعادته بعد التأكد من عدم ارتباطها بالجرم الحاصل، سُلمت بدلاً من هاتفها هاتف آخر صيني المنشأ! علماً أنه يحق لكل صاحب مصلحة وصفة التقدم بطلب تسلّم المضبوط، أمام المرجع المختص حيث يوجد الملف. وفي حال كان المضبوط مشروعاً ولا يشكل أداة جرمية، أو قد تم الفصل نهائياً في الدعوى، ولم يعد هناك جدوى من حفظه في المحكمة، تُقرر المحكمة تسليمه إلى صاحبه، بعد موافقة النيابة العامة الاستئنافية. وفي غياب النصوص القانونية لناحية مسك المضبوطات وتنظيمها وتوضيبها والمحافظة عليها، تتولى كل محكمة آلية معيّنة بذلك. ففي محكمة النبطية مثلاً، يرتبط المضبوط بالملف الذي يتبع له، بحيث يودع معه، إذ توضع البنادق، والأسلاك الحديدية، والبطاريات، والأجهزة الكهربائية وغيرها من المضبوطات بين مكاتب الموظفين. وحتى المواد المخدّرة، توضع في خزائن المحكمة كما هي، وتبقى كل هذه الأشياء على حالها، إلى حين اختتام المحاكمة في الملف، بحيث توضع في المستودع إلا إذا قررت المحكمة خلاف ذلك.

وبحسب أحد الموظفين، فإنه قلّما تُتلف هذه الموجودات، وإذا حصل، تُبلَغ المراجع المعنية، فإذا كانت مواد مخدّرة مثلاً، يُبلَّغ مكتب مكافحة جرائم المخدرات، أما الأسلحة، فتوضع في تصرّف الجيش اللبناني الذي يقرر الاحتفاظ بها، في حال كانت صالحة للاستخدام، أو تلفها.

أما في قصر عدل صيدا -ذو البناء الحديث نسبياً- تبدو الأمور مختلفة إلى حد ما، لوجود أربعة مستودعات كبيرة ومنظمة، إضافة إلى خضوع المشرفين عليه لدورات تدريبية عبر إحدى الجهات المانحة. وبحسب القيّمين، يمكن العثور على أي مضبوط، كونه مرتباً ومنظماً ومرقماً بحسب المحضر المدوّن في سجل الأمانات لدى النيابة العامة الاستئنافية. إلا أن اللافت في قصر عدل صيدا أن الأسلحة والذخائر المضبوطة، لم تغادر مكانها منذ أكثر من عشرين عاماً، إذ لم يتسلّم الجيش إيّاً منها منذ ذلك الوقت.

وفي قصر عدل بيروت، حيث مستودع المضبوطات منظّم إلى حد ما، بعد تأهيله من قبل إحدى الجهات المانحة، تكمن المفارقة في أن جميع تلك المضبوطات خاضعة مباشرة للنيابة العامة التمييزية، بحيث لا يمكن أن «تخرج إبرة من دون موافقتها».

> **أعمال الترميم لمستودع المضبوطات في قصر عدل بعبدا غير مجدية لما يعتريه من مشاكل بنيوية في هيكله**

عدم عرض المضبوط أمام المحكمة كسبب تمييزي

يكمن الحديث عن أهمية تنظيم المضبوطات انطلاقاً من كون غالبيتها تشكل أداة جرمية، وليس فقط مجرد أمانة تعاد إلى أصحابها، والأداة الجرمية هي أهم عنصر في المحاكمة. من هنا، تكمن الأهمية القصوى في المحافظة عليها، إذ يحق لأي فريق في الدعوى أن يبني أو يحتجّ عليها. وحول هذا نصّت الفقرة الثالثة من المادة 250 من قانون أصول المحاكمات الجزائية على أنه: «يجب أن توضع جميع الأدلة التي ستُعتمد للفصل في الدعوى قيد المناقشة العلنية بين الفرقاء وأن تُعرض المواد الجرمية وتُتلى المحاضر التي تثبت ضبطها. لكل من الفرقاء أن يتخذ موقفاً منها». إلا أن الواقع يبدو مغايراً تماماً، فبحسب المحامية سامية المولى «قلّما يتم عرض المضبوطات خلال المحاكمات، رغم أهميتها، وعدم قانونية ذلك، إذ إنه كثيراً ما يُذكر استخدام أداة جرمية من دون التحقق من وجودها أصلاً». وتضيف المولى أنه «عند طلب عرض المضبوطات، غالباً ما يُضم هذا الطلب إلى الأساس، ما يعني رد الطلب ضمناً، والذي يُعدّ سبباً تمييزياً في حال رغب المستدعي بالطعن في الحكم».

من المضبوطات أكواز صنوبر

لدى الحديث عن المضبوطات، ينبغي التمييز أولاً بين تلك التي تُعدّ أداة جرمية، أي التي تُرتكب عبرها، وتلك التي تُضبط في معرض حصول جرم ما، أو نتيجة حصول جرم ما، كالمسروقات وغيرها. وعليه، تتنوع هذه المواد المضبوطة الموجودة في المستودعات بين أسلحة حربية وبنادق صيد، وآلات حادة، ومناشير، وسيارات، ودرجات نارية، ومصاغ ومجوهرات، وأسلاك كهربائية، وخردة متنوعة، وأجهزة كهربائية، وبالطبع كميات من المواد المخدرة، وغيرها. أما النقود الورقية، فتوضع عادة في الخزائن الحديدية للمحاكم، إذ سجّل في الآونة الأخيرة ضبط الكثير من النقود المزوّرة، من عملة الدولار الأميركي، ومستندات متنوعة والتي تبقى عادة مُرفقة في الملف القضائي. والملاحظ في الآونة الأخيرة أن المسروقات المضبوطة لا تقتصر على الأشياء القيّمة والثمينة، بل تشمل المحاصيل الزراعية، ومنها أكواز الصنوبر التي ضُبطت مؤخراً في إحدى المحاكم.

ثروة المضبوطات؟

أعلنت قيادة الجيش الشهر المنصرم ضبط حوالي 95 سلاحاً حربياً، إضافة إلى كمّيات من الذخائر وعدد من الآليات والدراجات النارية والمخدرات، ومواد مختلفة، وهو أمر يتكرر دائماً بحسب المتابعة. ولعلّ واقع المستودعات التي تغصّ بكميات هائلة من المضبوطات، والتي صدرت أحكام بمصادرتها، أو تلك غير المشروعة، أو التي أهمل أصحابها المطالبة بها وبقيت مكانها، خير دليل على سوء التصرف بعدم الاستفادة منها، فلماذا لا يتم بيعها بالمزاد العلني أو التصرف بها؟

سؤال يطرحه الموظفون الذين يعاينون يومياً حجم «الثروة» في مستودعات العدليات، فيما يعانون من شحّ غير مسبوق في أدنى المستلزمات لسير المرفق العام. «عالأقل يبيعوهن ويجيبوا فيهن قرطاسية»، يقول أحد هؤلاء. إذ إن الكثير من المضبوطات والتي يُحكم بمصادرتها، تبقى في المستودعات وتتعرض للتلف.

تحت القوس

المنظومة تبتلع القضاء

عمر نشابة

تُرفع الشعارات المطالبة بالعدالة في لبنان بعد حسم الإدانة وإصدار الأحكام. ويُنتظر صدور الحكم بسرعة، ولا بد أن يكون مطابقاً للتوقّعات، وإلا قد يُتهم القاضي بالانحياز، وتُعدّ المحاكمة مؤامرة، والقضاء أداة بيد فريق على حساب آخر.

ينطبق ذلك على جميع الفرقاء في لبنان، ويؤدي إلى تحويل القضايا الجنائية القضائية إلى مواضيع صدامية. وتُحال مرافعات الدفاع والقرارات الاتهامية والطعون الشكلية إلى حلبة الصراعات السياسية والطائفية والفئوية.

صحيح أن القضاء في لبنان ليس مستقلاً، وأن هامش التدخل في عمله والتأثير على قراراته واسع. وصحيح أن بعض القوانين قديمة وأخرى غير قابلة للتطبيق وتحتاج إلى تحديث، غير أن المشاكل التي يعاني منها مسار العدالة لا تقتصر على ذلك، إذ إن تعطيل تسلسل الإجراءات القانونية وعدم صدور الأحكام والقرارات الحاسمة وترك العديد من القضايا الجنائية عرضة للتجاذبات الشعبوية، كلّ ذلك يبدو مناسباً لعدد من القضاة والمحامين. عشرات جرائم القتل والتفجير والاعتداء والإخفاء القسري بقيت من دون متابعة قضائية جدية، بينما تنتشر في وسائل الإعلام إدانات حاسمة بالجملة، وتُعرَض أفلام ووثائق وتُبثّ مقابلات وكأنها دليل قاطع يمكن الاستناد إليه لمعرفة الحقيقة. وبدل أن يُحصر تحديد الحقيقة بالمحكمة بعد السير في الإجراءات التي تمنح المتهمين حق الدفاع، وتعرض الإثباتات والدلائل وتدرس صدقيتها بدقّة، يتعطل المسار إما بسبب التدخلات السياسية أو بسبب خلل في تسلسل الإجراءات، أو بكل بساطة لأن بعض القضاة هم جزء من المنظومة الحاكمة، وقد تماهوا معها إلى حدّ زوال الصفات التي يفترض أن يتمتعوا بها كقضاة. ولا يخفى على أحد أن بعض القضاة انتقلوا لاحقاً إلى العمل السياسي أو إلى التجارة والقطاع الخاص، والبعض الآخر ربما يتمنى ذلك اليوم بسبب انهيار قيمة راتبه ومخصّصاته.

إن إصلاح القضاء في لبنان قد لا يستدعي قانوناً يضمن استقلاليته عن السياسيين ورجال الدين ورجال الأعمال فحسب، بل لا بد أن يضمن استقلاليته عن عقلية منتشرة بين بعض قضاته أساسها التسليم بسطوة قوى الأمر الواقع الطائفي عليه، والتصرف وكأنّ السلطة للقوة وليست للحق. إصلاح القضاء ليس من مصلحة السياسيين والطائفيين، بل هو مهمة الجسم القضائي نفسه كسلطة منفصلة تستدعي قضاةً شجعاناً يستندون إلى إثباتات علمية بعد التدقيق في صدقيتها، ويعملون بجدية وبالسرعة اللازمة ولا تهمهم التظاهرات والاستعراضات الإعلامية ورفع صورهم، ولا يسمحون احتسابهم لصالح فريق من اللبنانيين ضد فريق آخر. فالعدالة ليست سلاحاً أو أداة بيد مجموعة، بل هي أولاً قيم مبنيّة على قواعد ثابتة (مثل الاستقلالية وقرينة البراءة وحقوق الادّعاء والدفاع)، وثانياً، هي الالتزام بتسلسل الإجراءات بالسرعة الممكنة والوصول إلى «علاج فعّال» وعادل يستند إلى القانون ويحسم الحقيقة. والقاضي الفاشل هو من يُحتسب من «حصّة» مذهب أو طائفة أو تيار أو حزب أو سفارة، أياً يكن.

في القانون

المادة 69

(من قانون العقوبات) المعدّلة وفق قانون 5 شباط سنة 1948:

«يمكن مع الاحتفاظ بحقوق الغير ذي النية الحسنة مصادرة جميع الأشياء التي نتجت عن جناية أو جنحة مقصودة أو التي استُعملت أو كانت مُعدة لاقترافهما.

ويمكن مصادرة هذه الأشياء في الجنحة غير المقصودة أو في المخالفة إذا انطوى القانون على نص صريح.

إذا لم يكن ما تجب مصادرته قد ضُبط مُنح المحكوم عليه مهلة لأجل تسليمه تحت طائلة أداء قيمته حسبما يقدّرها القاضي.

يمكن للمحكمة عند الاقتضاء الاستعانة بخبير لتقدير القيمة الواجب أداؤها وتحصل القيمة المقدّرة بالطريقة المتّبعة في تحصيل الغرامة».

المادة 98

(من قانون العقوبات):

«يصادر من الأشياء ما كان صنعه أو اقتناؤه أو بيعه أو استعماله غير مشروع وإن لم يكن ملكاً للمدعى عليه أو المحكوم عليه أو لم تقض الملاحقة إلى حكم.

إذا لم يكن ما تجب مصادرته قد ضُبط مُنح المحكوم عليه أو المدعى عليه مهلة لتقديمه تحت طائلة أداء ضعفي قيمته حسبما يحددها القاضي.

يمكن للمحكمة عند الاقتضاء الاستعانة بخبير لتقدير القيمة الواجب أداؤها وتحصل القيمة المقدّرة بالطريقة المتّبعة في تحصيل الغرامة».

المادة 273

(من قانون أصول المحاكمات الجزائية):

«إذا ثبت للمحكمة وقوع الفعل وتحقق فيه الوصف الجزائي وتوافرت الأدلة على نسبته للمتهم فتقضي بتجريمه وبتحديد العقوبة التي تنزلها به. كما تحكم بتعويضات للمدعي الشخصي إذا طلبها. تحكم بمصادرة الأشياء المضبوطة أو برّدها إن لم يتوافر سبب لمصادرتها. يمكنها أن تقضي أيضاً بتدبير أو أكثر من التدابير الاحترازية وبعقوبة أو أكثر من العقوبات الفرعية أو الإضافية.

«للمحكمة أن تقضي بإدغام العقوبات الأصلية عملاً بأحكام المادة 205 من قانون العقوبات».

الضابطة العدلية

مضبوطات عرضة للتخريب
حجز الأملاك في «البورة»

لدى وقوع مخالفة او جريمة، لا تقتصر مهمة قوى إنفاذ القانون على توقيف الافراد، إذ قد يطاول الحجز، احياناً، المركبة الآلية او الدراجة النارية في «بورة» تتكدّس فيها السيارات و«الموتوسيكلات» المصادرة بعضها فوق بعض. وفي ظل الازمة الاقتصادية وارتفاع اسعار قطع السيارات، تواجه الآليات المحتجزة احتياطياً خطر سرقة بعض القطع. فما الذي ينصّ عليه القانون في ما يتعلق بحجز المركبات والدراجات؟ وكيف يتم «إخلاء سبيل» الآليات المحتجزة؟ وعلى من تقع المسؤولية في حال حدوث اي ضرر او سرقة قطعة من الآلية اثناء وجودها في «بورة» الاحتجاز؟

أحمد مدلج

«صُفّ على اليمين»، يقول الضابط لطارق أثناء مروره على متن دراجته النارية بحاجز لقوى الأمن الداخلي. «وَراقك ودفتر السواقة». لم يحاول طارق الـ«زوبرة» لتفادي المرور لأنه «قانوني». لكنه، لسوء الحظ، نسي رخصة القيادة في المنزل. لم يكد الضابط ينتهي من سؤاله عن «دفتر السواقة» حتى طلب حجز الدراجة إلى جانب عشرات الدراجات داخل الشاحنة. «الدفتر بالبيت، إذا ممكن تنظر بس لجيبه. ما تاخذها على البورة. أنا قانوني والله يا وطن»، قال طارق بيأس بعد يوم عمل طويل مرهق. فسمعة «بورة» حجز الآليات سيئة لجهة تعرّض الآليات المحتجزة فيها لسرقة قطع منها. بعدما أبرز طارق، في اليوم التالي، رخصة قيادة الدراجة النارية للمخفر الواقع ضمن نطاق مكان الحجز توجه إلى «البورة» التي يصفها بأنها «مقبرة حديد» تتكدّس فيها دراجات وسيارات، بعضها مرّت سنوات على احتجازها. عندما عثر على دراجته وجدها «بلا مرايا»، فيما لام صاحب «البورة» القوى الأمنية التي «كسرت المرايا أثناء نقل الدراجة».

في إحدى مناطق جبل لبنان، احتجزت القوى الأمنية سيارة كريم بعدما أضاف إليها جهازاً للإشارة والإنارة مخالفاً للقانون (المادة 49 من قانون السير). نقلت الدورية التابعة لقوى الأمن الداخلي الآلية إلى إحدى البُور الموجودة ضمن محافظة جبل لبنان. بعد خمسة أيام من احتجاز سيارته في مَرْأب كبير، اكتشف أن بطاريتها قد استُبدلت، وعندما واجه أصحاب البورة نفوا أيّ علاقة لهم بالأمر.

مضبوطات نتيجة جرم

ينصّ قانون أصول المحاكمات الجزائية في المادتين 98 و99 على أصول ضبط مختلف الأدلة وأماكن حفظها (من أوراق وأموال نقدية ووثائق). وفي حال ضُبط ما يتعذّر نقله إلى دائرة التحقيق أو مستودع الأمانات في قصر العدل بسبب حجمه، يسلمه قاضي التحقيق إلى من يراه مناسباً لحفظه بموجب محضر. وإذا كان المضبوط مركبة آلية أو دراجة نارية استعملها المدعى عليه أو المشتبه به في تنفيذ جريمة (كالقتل أو الاتجار بالمخدّرات داخل المركبة)، يعود لقاضي التحقيق أو المحكمة ضبط الآلية أو الدراجة. وبحسب المادة 103 من قانون أصول المحاكمات الجزائية، يعود للقاضي ردّ الآلية المضبوطة إلى صاحب الحق إذا كان حقه خالياً من أي منازعة قضائية، بعد التأكد من أن الاحتفاظ بها لا يفيد التحقيق. فالدراجة أو المركبة المضبوطة نتيجة مخالفة قانون السير فيحدد قانون السير الجديد شروط حجز واحتجاز المركبات وأماكن حجزها ومصيرها.

الحراس القضائيون

عند وقوع أي حادث يطاول المركبة الآلية أو الدراجة النارية إثر حجزها، كالسرقة أو وقوع ضرر، هل من مسؤول تتم ملاحقته للتعويض أو الادعاء عليه؟ بموجب مرسوم تحديد شروط حجز واحتجاز المركبات يتعهد المستثمر بالمحافظة على جميع المركبات المحجوزة أو المحتجَزة لديه، ويتحمل جميع الموجبات المترتبة على الحارس القضائي. وحدّد قانون السير الجديد في المادة 396 شروط تنفيذ حجز المركبات على أنواعها وحراستها عبر مرسوم يتضمن شروط بيع السيارات والمركبات المحجوزة في الملف أو أمام النيابة العامة أو القاضي المنفرد الجزائي أو قاضي محكمة الجنايات. أما حجز الآليات نتيجة مخالفة قانون السير فيحدد قانون السير الجديد شروط حجز واحتجاز المركبات وأماكن حجزها ومصيرها.

> نصّت المادة 7 من المرسوم رقم 780 على بيع المركبات والدراجات إذا انقضى على إيداعها داخل المرأب أكثر من سنة

للحفاظ على الأدلة داخل المركبة المحتجزة

للمركبات أهمية كبيرة في ما يتعلق بالأدلة الجنائية عند حدوث أي جريمة في داخلها أو استعمالها لارتكاب جريمة. فللحارس القضائي مسؤولية إضافية ليس فقط في حراسة الآلية المضبوطة، بل في الحفاظ والتعامل معها في ظل وجود أدلة يمكن الاستناد إليها ضمن التحقيق. صعوبات عدة يواجهها المحقق الجنائي عند معاينة المركبات، إذ إن هذه غالباً ما يتم حجزها داخل مرائب لا سقوف لها، ما يجعل المركبات عرضة للشتاء والهواء وأشعة الشمس. ثم إن عدم وضع أي غطاء يحمي المركبة من الأمطار وضوء الشمس الحارق قد يتسبب بتدمير الأدلة من حمض نووي وغيره.

مشكلة أخرى يعاني منها المحقق، تتمثل في تكديس المركبات بعضها فوق بعض. فعند توجه المحقّق للكشف على الآلية يتطلب ذلك استخراجها عبر رافعة أو جرّها يدوياً أو قيادتها، ما يعرّض الأدلة إلى التلف. لذلك من الضروري ركن جميع المركبات التي تحتوي على هذه الأدلة في مرائب خاصة.

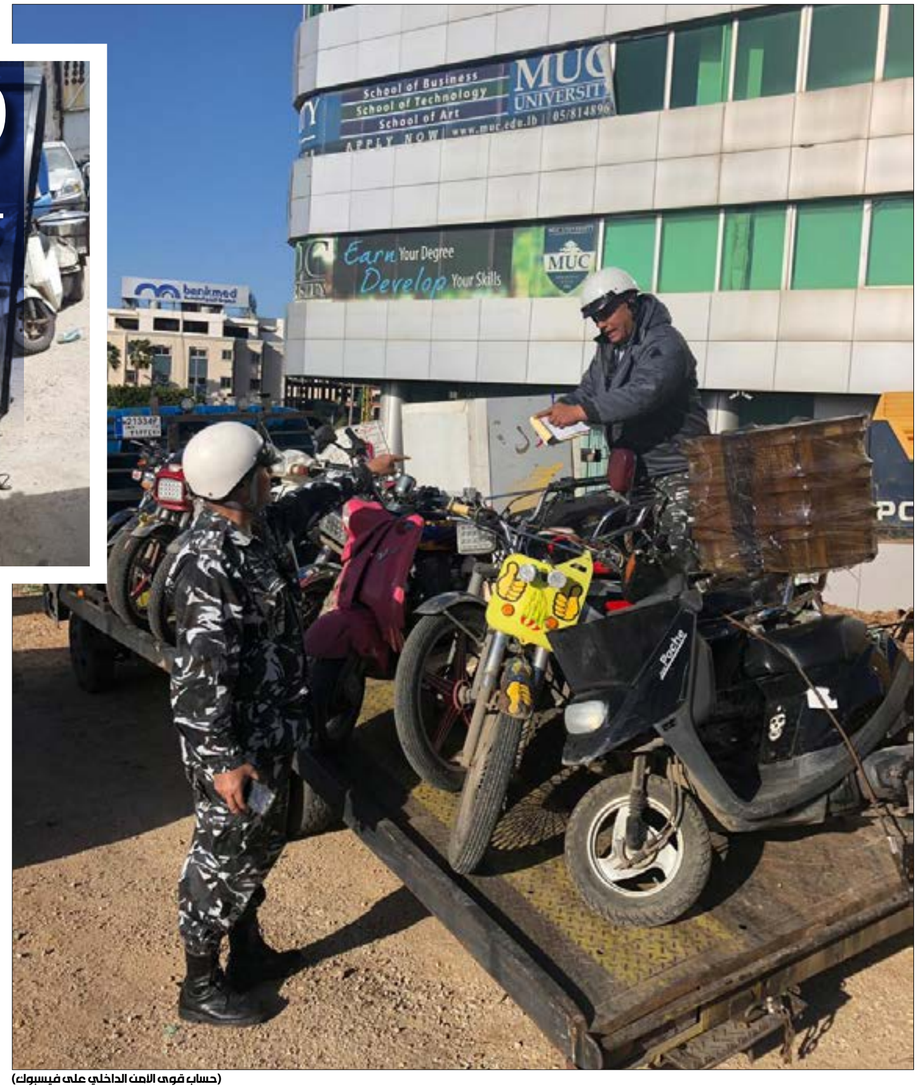

(حساب قوى الأمن الداخلي على فيسبوك)

289 ألف
هو العدد التقريبي للدراجات النارية المصادرة بحسب الدولية للمعلومات

بما فيها الدراجات النارية التي يتم تفكيكها قطعاً وتعطيل أرقام هياكلها وكبسها. ويمكن لرئيس دائرة التنفيذ أن يكتفي بنشر إعلان البيع في الجريدة الرسمية.

ما بعد المزاد العلني

بالنسبة إلى الأموال المكتسبة نتيجة البيع في المزاد العلني، تنصّ المادة 9 من المرسوم رقم 780 تاريخ 12/3/1971 على توزيع الأموال بالأفضلية:

- أجرة إيواء المركبة عن كامل مدة وجودها في المرأب
- الرسوم والغرامات (إذا لم يسددها مالك المركبة)
- أما الرصيد، في حال وجوده، فيُحفظ كأمانة لحساب صاحب المركبة لمدة سنة واحدة ابتداءً من تاريخ البيع. وبعد انقضاء هذه المهلة يصبح المبلغ ملكاً لخزينة الدولة. وإذا لم تكفِ قيمة البيع لتغطية نفقات البيع والإيواء والرسوم والغرامات، على المالك دفع الفروقات وفقاً لأصول تحصيل الضرائب المباشرة.

كما تحدد المادة 9 مكرر، تنظيم جدول بالمركبات المحتجَزة والتي انقضى على إيداعها في المرائب أكثر من سنتين ولم تُبع بالمزاد العلني خلال سنة من تاريخ طلب بيعها. يُرفع الجدول إلى المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي التي تقوم بتوحيد الجداول الواردة من مختلف القطع، وتطرح هذه المركبات للبيع بالمزاد دفعة واحدة، أو على دفعات، على أن يقوم المشتري عند وجود دراجات نارية بين المركبات التي اشتراها بتفكيكها إلى قطع وتعطيل أرقام هياكلها وكبسها على نفقته قبل تسليمه إياها تحت إشراف المديرية. أما المركبات التي لا تباع بعد طرحها بالمزاد العلني لمرة واحدة فتُتلف عن طريق الكبس بعد تعطيل أرقام الهياكل. في حال تبين وجود مركبات أو دراجات غير مدفوع رسومها الجمركية تبقى موضوع إشعار لإدارة الجمارك لاستيفاء حقها في الرسوم وفقاً لأحكام قانون الجمارك. ويعود ثمن البيع بالمزاد إلى خزينة الدولة.

سنة على دفع المخالفات وإلّا!

يُرفع الحجز عن المركبة بعد قرار من محكمة السير وبعد استيفاء ما يترتب على المركبة من رسوم أو غرامات، أو بعد التأكد من إزالة المخالفات (كإضافة أجهزة إنارة أو إشارة غير مسموح بها بحسب قانون السير أو وجود عاكسات إضافية، أو عدم وجود رقم الطراز المتسلسل) ضمن مهلة سنة.

لكن ما مصير الآليات التي تتخطّى مدة بقائها في المرأب السنة في حال عدم دفع الرسوم والغرامات؟

نصّت المادة 7 من المرسوم رقم 780 تاريخ 12/3/1971 على بيع كل من المركبات والدراجات التي انقضى على إيداعها داخل المرأب أكثر من سنة. ويتم البيع في المزاد العلني وفقاً لإجراءات بيع الأموال المنقولة المنصوص عليها في قانون أصول المحاكمات المدنية، من دون الحاجة إلى إنذار إجرائي. كما يجري تخمين قيمة المركبة المطلوب بيعها من قبل مصلحة تسجيل السيارات والآليات في حال تلكّؤ أصحابها في تسلّمها ضمن مهلة معينة، أو عدم تسديدهم الرسوم والنفقات المترتبة عليهم، بناءً على اقتراح وزيري العدل والداخلية والبلديات. فمن الذي يُعتبر حارساً على المركبات المحجوزة؟ بحسب المرسوم رقم 780 تاريخ 12/3/1971، يُخصص على الأقل في كل منطقة مخفر إقليمي وفي كل منطقة فصيلة إقليمية لحجز واحتجاز المركبات التي تُضبط في المنطقة. ويُطلق على مكان الإيداع اسم «المرأب». وتُحدد المرائب في كل محافظة بقرار من المحافظ بعد استطلاع رأي قائد السرية الإقليمية في الدرك وقائد سرية السير في شرطة بيروت (المادة 2 من المرسوم). ويُعتبر المؤتمنون على المركبات المحجوزة حراساً قضائيين مع كلّ ما ينجم عن ذلك من نتائج قانونية، ويتقاضون مقابل ذلك تعويضاً يومياً يدفعه مالك المركبة (المادة 395 من قانون السير الجديد).

سين جيم

الدعم والإعفاءات لرجال الدين والأغنياء فقط

صادق علوية

عندما فرغت خزينة الدولة، تبارز المسؤولون في البحث عن خطط بديلة من دعم السلع والمحروقات، مستخدمين عبارات ملطّفة، كـ«الترشيد» أو «التوجيه»، فيما الهدف في الحالتين واحد: وقف الدعم. ولكن، إذا لم يعُد لدى الدولة مال لتدعم الفقراء، لماذا تستمر الإعفاءات لأصحاب رؤوس الأموال، وما مبرر استمرار الإعفاءات الضريبية والقروض المدعومة لغايات تجارية وصناعية؟ الدولة الفقيرة التي تبحث عن موارد لرفد خزينتها، في ظل ندرة الواردات أساساً، يتوجب عليها أولاً البحث في إلغاء الإعفاءات الضريبية، ومنها «اللجنة الضريبية» للطوائف.

1- كيف أعفى القانون الطوائف الدينية من الضرائب؟

تستفيد كل طائفة معترف بها قانوناً من إعفاء من كل الضرائب المباشرة وغير المباشرة والرسوم والعلاوات التي تستفيد منها قانوناً المؤسسات العامة بموجب قانون ضريبة الدخل (المادة الأولى من القانون رقم 2000/210).

2- ما هي الضرائب التي أُعفيت منها الطوائف الدينية؟

الرسوم الجمركية ورسم الاستهلاك الداخلي ورسم التسجيل ورسم الميكانيك وكل ضريبة ورسم أينما وردت، كما تُعفى من الرسم على القيمة التأجيرية للأبنية المخصصة لإقامة الشعائر الدينية للمذاهب المعترف بها رسمياً وما يلحق بها مباشرة (المادة 13 من قانون الرسوم والعلاوات البلدية).

وتعفى من ضريبة الدخل المخصصات التي يتقاضاها رجال الدين لقاء قيامهم بالطقوس الدينية (المادة 47 من قانون ضريبة الدخل).

ووفقاً لأحكام الهبة في رسم الانتقال، إذا كانت للموهوب مؤسسة خيرية أو جمعية رياضية أو ثقافية أو فنية أو خيرية أو دينية، بما فيها الأوقاف الدينية، يشمل الإعفاء مبلغ مئة مليون ليرة (المادتان 16 و44، من المرسوم الاشتراعي الرقم 146 تاريخ 1959/6/12، «فرض رسم انتقال على الأموال المنقولة وغير المنقولة»).

إضافة إلى الإعفاء المقرر في قانون الضريبة على القيمة المضافة في حال كان أحد طرفَي العقد من الطوائف أو من الأشخاص المعنويين التابعين لها، فلا تتوجب هذه الضريبة على عمليات تأجير العقارات المبنية لغير غايات السكن، والتي لم يتم استيفاء الضريبة على القيمة المضافة عليها من مستأجريها أو شاغليها لغاية العام 2018.

3- هل تُعفى الجمعيات التعاونية وصناديق التعاضد؟

تُعفى الجمعيات التعاونية من ضريبة الأملاك المبنية عن الأبنية التي تملكها وتشغلها لتأمين المصالح المرتبطة بنشاطاتها. كما أعفى المشترع المشتري من التعاونية الإسكانية من الضريبة لمدة عشر سنوات من تاريخ الشراء، وأعفى الجمعيات التعاونية بشكل عام ومطلق من الضريبة عن المباني التي تخصصها للغاية المباشرة من إنشائها (المادة 58 من قانون الجمعيات التعاونية).

4- هل تُعفى الجمعيات والأحزاب السياسية والنقابات؟

تُعفى من ضريبة الأملاك المبنية، وبصورة دائمة، الأبنية التي تملكها الأحزاب السياسية والنقابات وسواها من الجمعيات والمؤسسات التي لا تتوخى تحقيق الربح (المادة 8 فقرة 9 من قانون ضريبة الأملاك المبنية الصادر في 17 أيلول 1962).

(هيثم الموسوي)

القوس

■ فريق التحرير: **عمر نشابة (المسؤول)، وفيق قانصوه، جنان الخطيب، صادق علوية، ألف باء القانون**
■ تصميم فني وإنفوغرافيك: **رامي عليّان**

alqaous | al_qaous | alqaous22 | alqaous | 01/34 99 54
info@alqaous.com | www.alqaous.com